أطياف من الجنوب

قصص من أدب الرحلات

بسام الرمّال

إلى الذين يحسدون المدرسيــن

على الذهاب إلى أرض العذاب

أهدي هذا الكتاب

أطياف من الجنوب *

توطئة

الأسطورة التي عرفتها كلّ الشعوب، وتعشّقتها النفوس، وسُحرت بخيالها الشارد، والتي يقوم بناؤها الفنيّ والممتع على الغريب والمدهش والمتجاوز لقدرات الإنسان وقوانين الطبيعة، تستمدّ معقوليّة أحداثها من البعد المكانيّ أو البعد الزمانيّ، فعندما يقال: حدث في قصر ملك من ملوك العصور الغابرة، كما في ملحمة جلجامش، أو جرت الأحداث في جزيرة تائهة في أعماق المحيط، كما في أسطورة رحلات السندباد البحريّ، فإن الأحداث مهما كانت غريبة أو خارقة للمألوف تدخل في مجال المتعة والدهشة والمعقول الإنسانيّ في إطار أحد ذَيْنِكَ البعدين، أو في كليهما معاً.

الطبيعة الإنسانيّة الضعيفة تتوق إلى تجاوز قوانين الطبيعة، والتغلّب على العجز البشريّ أمام جبروت السماء والأرض، فيجد الإنسان في الأسطورة مُنْسَرَحا في الخيال لتحقيق رغباته المكبوتة وأحلامه المَهيضة، فأخذت الأسطورة طريقها إلى النفوس العطشى إلى الانعتاق من حدود الزمان والمكان.

فالطير يحلّق فوق رؤوسنا سابحاً في فضاء لازورديّ حرّاً نشوانَ، فتَشوَّقَ الإنسانُ إلى التحليق مع الطير في الأوقيانوس الأزرق الساحر، وأبدع أسطورة بساط الريح، وامتطى ظهر الأثير، مروّضاً قوانين الجاذبيّة. والجنّ في قصّة سيّدنا سليمان (ع) أتوا بعرش بلقيس قبل أن يرتدّ الطرف قاهرين الزمان والمكان، فركب الإنسان ظهر المارد في أسطورة علاء الدين، واجتاز الفيافي والقفار بسرعة، تُخجِل البروق، طاوياً الأصقاع هازئاً بالمسافات العصيّة.

ما جاء في هذا الكتاب ليس أسطورة، وليس ملحمة، وليس طرائف من إبداع الخيال، إنّما هو حوادث ووقائع ومواقف جرت حقيقة، شاهدتُها.. عشت أهوالها.. ذقت علقم بعضها، ونقلت عن أناس قصّوا عليّ مباشرة ما جرى معهم، أو ما شاهدوه، وقد أشرت في كلّ حادثة إلى ما شاهدته بعينيّ وجرى معي، أو ما قصّه عليّ أبناء تلك المنطقة دون أن أراه.

والفنّ الأدبيّ الذي ينتمي إليه هذا الكتاب ربما يدخل في رحاب أدب الرحلات أو المذكّرات أو الطرائف والعجائب، وربّما قارب معنى (يوتوبيا) في إحدى مراحل تطوّر معناها الدلالي، الذي أخذ في القرن التاسع عشر معنى يتراوح بين الخرافة وقصص الرحلات، أو ما شئت من تسميات، لأنّ فيه من الأحداث ما يقترب من هذا الفنّ أو ذاك، وربّما لامس عالم الأسطورة أو الخرافة، لكنّه الحقيقة.

البعد الزمانيّ الذي جرت فيه أحداث هذا الكتاب ليس مغرقاً في القدم، إنّه تحديداً أواخر سبعينيّات القرن الماضي، والبعد المكانيّ على مرمى نظرة إلى التلفاز أو الأطلس، إنّه جيزان، آخر منحدرات جبال عسير وأوّل سفوح جبال اليمن الانكساريّة، هذا المنخفض الأسطورة الذي يضمّ بين دفّتيه الصخريّتين بداية تاريخ البشريّة، ثم صحوة أبنائه المفاجئة من غفوة العصور على أنوار الحضارة وقطف ثمارها- دون أن يعرفوا معاناة (نيوتن) أمام معادلاته، أو سهر(أديسّون) في مختبره- ففي هذا المنخفض مَنْ كان يستعمل حتّى وقت قريب أطباقاً من الحجر للطعام، وفيه آخر منجزات العلم وبهارج العولمة، إنه جيزان، أوجنوب جيزان، حيث تستقبلك جبال اليمن السيفيّة المشرعة أمام الغزاة، والتي أبت الانحناء أمام حملات العثمانيّين، فقد بقيت هذه البقعة الخرافة عصيّة على الاحتلال، تأتي الحملة تلو الحملة، يريدها العثمانيّون بوابة إلى البحار الجنوبيّة، لكن الموت الزؤام كان ينتظر صناديدها وخيرة قوّادها، ولا يعود من الحملة إلا مَن يُخبر عن هذه الأرض المعجزة، لذلك سمَّوها مقبرة الأناضول- والأناضول هضْبة في تركيّا موطن الأتراك- أي مقبرة الأتراك، حتى جاء القائد العثمانيّ الداهيَة (سنان) باشا، واحتلّ اليمن عام / 1551 /، واستولى على العاصمة صنعاء مستغلّا المنازعات بين الأمراء الزيديّين، ومع ذلك بقيت هذه البقعة النائية (جنوب جيزان) مختبئة في خاصرة جبال اليمن بعيدة عن اهتمام العثمانيّين، إذ لا حاجة لهم فيها، وبعيدة عن ركب التطوّر والأخذ بأسباب الحضارة.

ربّما تكون هذه البقعة من أشرس بقاع الدنيا مناخاً وتضاريسَ وحيواناً ونباتاً وأمراضاً وغرابةَ عاداتٍ، حتّى نُسجت حولها أسطورة تقول: إنّ النبيّ سليمان (ع) كان يسجن فيها الجنّ المذنبين لقسوتها في كل شيء، فيعودون تائبين طائعين، وقد نظم أحد المدرّسين الساخرين أبياتاً من الشعر في هذه المنطقة الأعجوبة، منها هذا البيت:

إن قِيلَ للأرض وجهٌ فهو لبنانُ أو قِيلَ للأرض ذَيلٌ فهو جيزانُ

وقد تفنّن المدرّسون في تغيير كلمة (ذيل) في هذا البيت، واستبدلوا به أيّ عضوٍ آخر من أعضاء الإنسان، طبعاً كلُّ مدرّس يغيّر الكلمة بحسب ذوقه ومعاناته.

وعندما قامت الثورة اليمنيّة بقيادة (عبد الله السلال) في أوائل ستينيّات القرن الماضي، وأعلنها جمهوريّة، وقفت معه القوى الثوريّة العربيّة وبخاصّة الاشتراكيّة منها آنذاك، وعلى رأسها الشقيقة الكبرى مصر، ووقفت مع الإمام المخلوع (البدر) القوى المحافظة، تتزعّمها المملكة العربيّة السعوديّة، كبرى المشيخات العربيّة.

تحصّن الإمام (البدر) بين شعاب جنوبيّ جيزان الحلزونيّة المحاذية لليمن، ودارت معارك ملحميّة، لم تستطع مدافع الانقلابيّين من فوق الجبال، ولا طائرات المصريّين من الجو، ولا الجنود الزاحفون على الأرض، أن يزحزحوا الإمام البدر ومقاتليه من أماكنهم، لأن المِنطقة التي تشبّث بها متحصّناً وعرةٌ عصيّةٌ على الجنّ، وكان قرب البيت الذي سكنْتُه في قرية (قُوّا) الحدوديّة مع اليمن عام /1978/ أطلالُ مَرْبِضِ مِدفعٍ للإمام البدر متهدّمِ الجوانب، و لمّا يمضِ على حفره وتحصينه حتّى قدومنا إلى هذه القرية أكثر من /15/ عاماً، لكنّه ما يزال يحتفظ بشكله الذي لا تخطئه عين من حمل السلاح سنوات في وجه شذّاذ الآفاق، وحفر مرابض وخنادق ..

في هذه المنطقة أمضيت عاماً دراسيّاً كاملاً بين عامي / 1978 – 1979 /، قمت خلاله بالتدريس مُعاراً من الجمهوريّة العربيّة السوريّة إلى المملكة العربيّة السعوديّة.

فهيّا بنا عزيزي القارئ، نمخر عباب الزمن، ونرتاد جنبات المكان في تلك البقعة الخرافة، التي نسيتها الأحقاب نائمة، ثم نهضت مبهورة، على أضواء الحضارة، فربّما نرى في طبيعتها وسيرورة الحياة فيها طفولة الإنسان وبداية تطوّر البشريّة .

بسّام الرّمّال

حلب – نيسان – 2014

.

البداية من دمشق

صالة المطار الأنيقة بهرت هؤلاء البائسين الذين جاؤوا من كل المحافظات والأرياف، منذ أن اتخذوا مهنة الأنبياء رسالة ومصدر رزق وهم يحلمون بجزر الماس والعقيق.. ببلاد الذهب الأسود.. كي يودّعوا الفقر، معلّمون ومدرّسون.. آمال وأشواق.. أحلام ودموع ..تركوها معلّقة على الأهداب والأبواب، وقلوب تدعو بالتوفيق.

بدأنا نتجمع حول بعضنا بعضاً بغريزة غريبة، وكأنّنا على موعد، بدأنا بالسلام ثم بالسؤال عن الإجراءات اللازمة للسفر، ثم انخرطنا في أحاديث وشجون، يفتح الواحد قلبه للآخر، ويبوح له بأسراره، وكأنّه صديق عريق، فتحيّة لك يا ابن أبي سلمى من وراء العصور: "ومَنْ يَغتربْ يَحسبْ عدواً صديقَه"، كبرت الدائرة، وارتفع اللغط، وزال التوتّر.

علا صوت المكبّرات، يرجو من المغادرين إلى المملكة العربيّة السعوديّة التوجّه إلى البوابة رقم (5)، للسفر على متن إحدى طائرات بان أميركان، كرّر مكبرُ الصوتِ النداءَ أكثر من مرة وبأكثر من لغة، فرح داخليّ وإشفاق من تجربة خطرة، ستعلو بنا الطائرة متن الفضاء، وتُعلّقنا بين السماء والأرض على أكفّ الرياح.

فتاة في ميعة الصبا، عينان سوداوان وسمرة عربيّة، تحمل نكهة البوادي، كانت تتطلّع إليّ بفضول، وبخبرة تجربة مرحلة الشباب التي أحاول أن أودّعها بعد أن دخلتُ قفص الأحلام أدركت ما يجول داخل هذه الحوّاء، كانت تعتمل في أعماقي مشاعر متضاربة، زوجتي الحامل التي تركتها ولمّا يمضِ على زواجنا عامٌ واحد، وأبي المريض الذي تركته ملازماً الفراش، والأهوال التي تنتظرنا في جيزان بلدِ الأفاعي والقرود كما سمعنا وقرأنا، والتوجّس من تجربة الطيران الأولى التي سينتقم الله فيها حتماً مِن كلّ مَن ارتكب ذنباً في ماضي أيّامه- أستغفر الله من الذنوب، فما أكثرها- وغيرها من المشاعر والهواجس التي لا يمكن تفسيرها في مثل هذا الموقف، نظرتُ إلى هذه الولهى الغريرة، وعيناي تقولان: (الصيفَ ضيّعْتِ اللبن)، فقد جئتِ بعد مواسم القطاف، ولساني يردّد قول نزار:

أبحثتِ عن ماضيّ عن متلوِّنٍ شارٍ بأسواق الهوى بيّاعِ ؟!

ارتفعت الطائرة في لحظات، وبدأت معالم الأرض تبتعد وتضمحلّ، تعلّقنا بالفضاء باللاشيء، هرب قلبي من مكانه، أصبحنا بين يدي الرحمن مالكِ السماوات والأرض، لقد حان وقت القِصاص، التمس لساني المُعَوِّذتين وآيات النجاة، ورحت أعاهد الله على التوبة والاستقامة، وأنتظر حكمه العادل في سجلّ أيامي الذي أرجو أن ترجح فيه كفّة الحسنات، رقّت روحي وتسامت، أحسست بوَجَل الثُقاة، وهم يَغرقون في الندم والرجاء والانعتاق من أسر الجسد، وأنا في هذه النشوة الوجدانيّة بين برزخ المادة و برزخ الروح، هدل صوت المضيفة الحسناء بابتسامتها اللؤلؤيّة، يخرجني من هول التجربة، ويطلب برقّة فراشة ربيعيّة فكّ الأحزمة، ثم أخذت تعلّمنا طريقة استعمال جهاز الأكسجين في حال الضرورة، عاد قلبي إلى مكانه، وأخذ يصدر دقّات متناغمة، طالما عزفها في جهلة الصبا، عرفت الآن لماذا يختارون المضيفات الناعمات.

من النافذة الصغيرة غرقت نظراتي في الأزرق اللامتناهي، تسبح تحتنا الغيمات العاشقة، يلاحق بعضها بعضاً، الطائرة تنفلت من قيود الزمان والمكان، وتنزلق بنعومة في السديم الصامت، سيّارة على الأرض فوق خطّ حائل اللون أرفع من قلم الرصاص، تدبّ أبطأ من نملة، وجبة الغداء الحضاريّة المُقنّنة في عبوات صغيرة والتي لا تمتّ بصلة إلى وجبة العدس بحمض الحصرم المفضّلة لديّ، ووجوه المضيفات الحسان المشرقة أبداً، وتعاملهنَّ الرقيق الأنيق، والجو الحميميّ الراقي حولي، كلّ ذلك أعادني إلى توازني النفسيّ، فداخلني شعور بسعادة غريبة لا تُفسَّر، وكأنّ سعادتي في هذه اللحظات تقول للأرض: ابتعدي فلست بحاجة إليك.

عاد الصوت الشفّاف ينساب كالحلم، يطلب منّا ربط الأحزمة والبقاء في أماكننا، دقائق والطائرة تلامس الأرض دون أن نحسّ.

في جدّة

الثالثة ظهراً، خرجنا من باب الطائرة، ظننت أنّهم أخطؤوا، فأنزلونا من باب النجاة خلف محرك الطائرة النفّاث الذي يزفر سعيراً، الشمس فوق رؤوسنا على بعد أمتار، ولهب أبيض يزحف على الأرض، كلّ شيء هنا يشتعل، وكأنّ كوّة من جهنم فُتحت علينا.

بعد إجراءات الدخول انتقلنا إلى صالة تَجَمُّعِ المدرّسين في المطار القديم، جانب مدينة الحجّاج، لم أصدّق أنّني سأدخل قاعة مكيّفة، وأهرب من هذا الأتون، الناس أكوام مبعثرون.. مدرّسون مع عائلاتهم، يتحلّقون حول بعضهم بعضاً على أرض جرداء، وآخرون لم يصطحبوا عائلاتهم مثلي، ينتثرون في أرجاء الصالة، كان لا بدّ لكلّ مجموعة من رئيس، مجموعتنا التي ستذهب إلى جيزان أخذت زاوية في الصالة الفسيحة العارية من كلّ شيء، واختارت بشكل عفويّ مدرّساً مُخضرماً، له خدمة طويلة في جيزان رئيساً لها، كان أستاذي فيما مضى، معلّماً للرياضة في مدينتيْ (حلب) في مدرسة (معن بن زائدة) عام /1960/، عرّفته بنفسي، فلم يعرفني، كان وَدوداً بشوشاً، اسمه عبد الكريم قاوجي، ويكنّى بـ (أبو عمّار)، قال: علينا أن نبقى هنا يوماً أو أكثر، حتى يتجمّع عدد كافٍ من المدرّسين المتوجّهين إلى جيزان من كلّ الأقطار العربيّة، عند ذلك تُخصّص لهم طائرة للسفر، سألته: لماذا لا نذهب إلى أحد الفنادق، فهناك الراحة والاحترام؟ أجابني: موعد إقلاع الطائرة يُحدّدُ فجأة، لذلك علينا أن ننتظر الفرج هنا.

لم أتعوّد منذ زمن طويل الجلوس على الأرض العارية مباشرة، الذين سبقونا في الانتظار التقطوا بعض الصناديق الكرتونيّة من محيط المطار، جعلوها موطئاً، يجلسون عليه، وفراشاً ينامون فوقه، حصلت على قطعة من الكرتون، اتّخذتها بساطاً، لكنّ الجلوس على الأرض مباشرة كان مزعجاً بالنسبة إليّ، وربّما إلى آخرين غيري.

خرجنا من صالة المطار مساء في جولة في مدينة (جدّة)، كانت الشمس قد ابتعدت من فوق الرؤوس، ومالت نحو البحر، لكنّ عينها ما تزال حمراء، تنظر إلينا بحقد، مدينة الحجّاج تقع بين المطار القديم والمطار الجديد، بناء ضخم، يمتدّ طولاً إلى أكثر من مئة متر، ويرتفع إلى عشرة طوابق، خصّص كما قيل لنا لإقامة الحجّاج يوماً أو يومين في موسم الحجّ فقط، قبل مغادرتهم إلى مكّة أو قبل عودتهم إلى بلادهم، عشرات المداخل والمخارج ومئات النوافذ والشرفات، بناء رائع، ذكّرني ببناء السكن الجامعيّ، لكنّه هنا يحمل آثار اليد الصناع والذوق الفنيّ الأخّاذ.

انطلقت بنا سيارة الأجرة إلى الأسواق، يتزعّمنا المخضرم (أبو عمّار)، شوارع عريضة نظيفة، وأبنية شامخة، تبتسم واجهاتها الزجاجيّة بأناقة عصريّة، ويضحك لنا بريقها من أيّ جهة نظرنا إليها، أدهشتنا هذه الصروح العملاقة، إنّه إعجاز معماريّ لم نعهد مثل ضخامته في بلادنا.

بناء الملكة وسط الأسواق التجاريّة معجزة حضاريّة أو صدمة حضاريّة أخرى بالنسبة إلينا، وبخاصة للقادمين من المدن الصغيرة والقرى التي ما تزال بيوتها ذات القباب تبنى من الطين والقشّ، بدأ الليل يزحف فوق المدينة، وبدأ بناء الملكة يزهو شعلة من الأضواء والألوان والزينات، يصعد البناء إلى أكثر من عشرين طابقاً، وكلّها تغصّ بالمتسوّقين والمتسكّعين أمثالنا والزائرين من كل الأجناس والألوان والأشكال، ففيهم الأوربيّ الأشقر والزنجيّ الأسود والشرقيّ الأصفر والعربيّ الأسمر، وتسمع وسط هذا الخليط العجيب لغاتٍ ولهجاتٍ وأصواتاً، يضيق بها قاموس الأمم المتّحدة، وترى من اللباس والأزياء ما يبدأ بعصر الرعي، وينتهي بلباس روّاد الفضاء، فهنا من يلبس (الحوكة) المئزر اليمنيّ، ومن يلبس الدشداشة أو الدشداشة وفوقها العباءة، وآخر يلبس بنطال (الجنز) (الشورت) الممزّق، وهناك من تستتر بالجلباب والنقاب، فلا يمكن أن تعرف لون بشرتها، وأخرى ترتدي من الثياب ما لا يستر عورة الرجل، ويصدق فيها قول رسول الهداية (كاسيات عاريات).

المحلّات في بناء الملكة تحوي كلَّ ما في الدنيا من سلع وبضائع ومنتجات، وكلَّ ما يخطر على بال إنسان، وما لا يخطر على قلب بشر، كانت صدمتنا بالأسعار أكبر من كلّ ما صادفنا هذا اليوم، كنّا نَعُد الأصفار جانب الأرقام، ونتّهم

القارئ منّا بالغباء ، ثمن ساعة اليد خمسة آلاف ريال، فيصحّح له الآخر خمسون ألفاً يا جاهل، انظر، أربعة أصفار إلى جانب الخمسة، فيصفّر الأول صفرة طويلة ويقول: خمسون ألفا.. راتبي في السعوديّة مدة سنتين، وراتبي في سوريا أكثر من عشر سنوات، انظرْ.. انظرْ.. البدلة الرجاليّة (الطقم) بعشرة آلاف فيصحّح له رفيقه.. أسعار مخيفة، نادانا رفيقنا الحمصيّ: تعالوا الغرام الواحد من الطِّيْب الشرقيّ بعشرة آلاف ريال، هل هو طِيْب أهل الجنة؟!، غلالات عجيبة برّاقة تغطّي واجهات محلّات الصاغة، تتدلّى قِطَعُ الحُلِيِّ الذهبيّة كخصلات المراهقات على ضفاف (السين والراين)، وتتلألأ تحت أضواء المصابيح الصفراء الحادّة متوهّجةً، تكاد أن تشتعل، عجباً هل يوجد في الدنيا كلّ هذا الذهب!؟، وهل ما يحويه كلّ مخزن مِلْكٌ لرجل واحد!؟، عقدت الدهشةُ ألسنتَنا، فوقفنا صامتين فاغري الأفواه، فقد بهرنا المشهد، بهرتنا دقّة الصناعة وجمال الزخرفة وتنوّع الأشكال وغزارة المعروضات، أخذ كلّ منّا يحدّث نفسه وفقاً لما عكسته غرابة المشهد في داخله من دهشة، وانطلق خياله، يرسم الصور والمقارنات، خيالي ارتدّ إلى العام الماضي، عندما ذهبنا لشراء الشبكة لخطيبتي، زوجتي الآن، وكيف أرسل الصائغ ابنه إلى محلّ جاره ليستعير منه قطعاً ليست متوفّرة لديه.

كان أكثر البائعين موظّفين من الجنسيّات الآسيويّة، الهنديّة والفلبينيّة والأندنوسيّة .. لا يتكلّمون إلا الإنكليزيّة المُهجّنة بلغات بلادهم، وصاحب المتجر عربيّ، يجلس في صدر المكان بثوبه الأبيض الناصع، وعلى رأسه شملته الحمراء أو البيضاء، ووجهه الذي لا يعرف الابتسامة، كان تعامله وأمثاله قاسياً صارماً، ربّما كان السبب كثرة المتفرّجين والمتسكّعين أمثالنا وقلّة المشترين، أو كانت هذه الجفوة انعكاساً للبيئة الصحراويّة الجافّة على نفوسهم على مدى العصور، على رأي مؤسس علم الاجتماع (ابن خلدون)، وكما يقول بذلك أصحاب المدرسة الطبيعيّة، وعلى رأسهم الناقد (تين)، أو ربما كانت نتيجة للغنى المفاجئ بعد تفجّر الذهب الأسود على حدّ قول عمر أبي ريشة:

بدويّ أَوْرَقَ الصخرُ له وجرى بالسلسبيل البَلْقَعُ

ارتفع أذان المغرب من مكبّرات الصوت الموزّعة في كلّ زوايا الأسواق، فجأة خلت المحلّات والمطاعم والمقاهي من الناس، وأغلقت أبوابها، قال أبو عمّار: يجب أن تُغلق كل المحلّات أثناء الصلوات الخمس، ويذهب جميع الناس لأداء أمّ الفرائض جماعة في المساجد، انتشر رجال بلحى طويلة، أغلبها مخضّب باللون الأحمر، يلبسون أثواباً قصيرة، ترتفع شبراً عن الأرض، وتصل إلى بطّة الرِّجْل، ويرتدي بعضهم فوق أثوابهم العباءات الفضفاضة، وبأيديهم أعواد طويلة من الخيزران، يحثّون الناس على التوجّه إلى المساجد لأداء الصلاة في وقتها جماعة، باللين أوّلاً، ثم بالزجر إذا تلكّأ أحد عن الإسراع، وهم يردّدون: الصلاة.. الصلاة..

قال أبو عمّار عندما لاحظ الاستغراب في عيوننا ولفتاتنا: هؤلاء من (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، تقدّمتْ ثُلّة منهم إلى زميلنا الحمصيّ، وكان مسترسل الشعر- كما كانت البدعة (الموضة) وقتذاك- قال أكثرُهم حماسةً: ما هذا الشعر؟!.. هذا فتنة للنساء، أقسم بالله العظيم، لو لم يكن الآن وقت الصلاة لأخذتك إلى الحلاق ليجزَّ هذا الشعر.. شعر النسا.. هيّا إلى الصلاة، ويلك يا مخنّث إن رأيتك مرّة ثانية بهذا الهيئة.

حمِدنا الله على أنّنا في وقت الصلاة، كانت مكبّرات الصوت قد بدأت تنقل وقائع الصلاة من مسجد قريب، وما كاد الإمام يلفظ عبارة (السلام عليكم ورحمة الله) منهياً الصلاة، حتّى فَتحت المحلّات جميعاً بلحظة واحدة، وعادت الحياة تدبّ في شرايين الأسواق من جديد.

غاصت الشمس في البحر الأحمر، لا لتنطفئ، بل لتُبخِّر ماءه رطوبة قاتلة، تُشعرالإنسانَ بالاختناق، وزاد على الرطوبة فُوّهات المكيّفات الخارجيّة التي تتنفّس شُواظاً كأفواه التنانين، التصقتْ ثيابنا بأجسادنا من شدّة الحرارة والرطوبة، شعرتُ بضيق في صدري وصعوبة في التنفّس، وكأنّني أدخلتُ رأسي في حوجلة، قال لي زميلي الدمشقيّ: احتقنَ وجهك كثيراً، أسرع أبو عمّار، وأحضر علبة مياه غازيّة (كولا) مُثلّجة، خفّفت قليلاً من تأثير الجوّ الخانق، كنّا ندخل المحلّات المكيّفة، ولا نريد أن نغادرها، ولكنْ لا بدّ مما ليس منه بدّ، فكنّا نخرج لنواجه نوافذ جهنم من جديد.

رجعنا ليلاً إلى صالة المطار القديم، دفقاتٌ باردة استقبلْتنا، أنعشتْ حواسي، وأعادتْ إلى أعضائي الحياة، المدرّسون وعائلاتهم كما تركناهم أفراداً وجماعات، أولاد نائمون على الأرض الجرداء، تحاول أمّهاتهم توفير أغطية لهم، تحميهم من هواء المكيّفات .. نساء وفتيات أخذهنَّ الرقاد، تتجمع الواحدة منهنَّ على نفسها، تحاول إخفاء تضاريس جسدها، لكن سلطان النوم يطلق العنان لكلّ حركة عشوائيّة متمرّدة على الرقابة، فتبدو حينها معالم المُكَوَّر والمُقَوَّر.. أولاد ما زالوا في عبثهم في محيط ضيّق.. مجموعة من المدرّسين يتوسّطهم مدرّس هرم، يقصّ، ويشير بكلتا يديه كالحكواتيّ.. هناك مجموعة انفرط عقدها، بعدما تعبت من الكلام وسرد الحكايات، وانتثر أفرادها يتّكئون على مرافقهم، يسبح خيال كلّ منهم في أجواء الماضي والمستقبل، أكوام بشريّة مبعثرة، أعادت إلى الذاكرة جُرْحَ النكبة ومشاهد الذين شرّدتهم الخيانة ودعاة الحضارة، فساحوا في أرجاء المعمورة هرباً من حمّامات الدم، وطاؤهم الأرض، وغطاؤهم السماء ، أما نحن هنا فشرّدتنا الحاجة، وطاؤنا الكرتون، وغطاؤنا هواء المكيّفات.

كان نهاراً طويلاً وشاقاً.. حافلاً بكلّ جديد، فما إن أخذت مكاني بين مجموعتي حتّى داعب أجفاني طائف النوم، فتمدّدت على كرتونة تركها أحد المغادرين، وجعلت حذائي تحت رأسي، وغطّيته بالكرتونة، حملني طائف النوم على أجنحته إلى عالم الأحلام، لم أدرِ كم مرّ من الوقت، وإذ بي أستيقظ على ألم في عظم الحوض، فقد كنت أنام على جنبي النحيف، تمدّدت على ظهري، وأسلمت أجفاني ثانية إلى تهويم الكرى، لكنّها دقائقُ والألم نفسه، يتجدّد في عمودي الفقريّ، انقلبت على بطني، فضاق صدري، وشعرت بصعوبة في التنفّس، جلست مكاني، بعضُ مَن حولي يعلو غطيطهم، لا شكّ أنّهم يحلمون بالسعادة ومغازلة الآمال، أحدهم يضطجع قريباً منّي يحلم بصوت عالٍ: " سعاد.. أم سامر تعالي .. لا تبعدي" ومدّ يده يقبض الفراغ، يبدو أنه ترك زوجته، وجاء كما جئت وحيداً، حسدتهم على تمتّعهم بنوم هنيءٍ ..كثيرون مثلي يخادعون النوم، فلا يُخدع.

تمدّدت من جديد يسامرني التعب والنعاس والألم، أتقلّب كما تتقلّب كرات الفرّوج على نار هادئة، لكن ناري هي نار الشوق إلى إغفاءة، ولو لدقائق، صوت ذلك المُعنّى مثلي يستيقظ من وراء العصور، ويتردّد صداه في جوانب رأسي:

يظلُّ الرجالُ المُوسرون بأرضهم وترمي النوى بالمُقْتِرين المَراميا

لم أدرك معاناة هذا الشاعر الحقيقيّة إلّا في هذه الليلة الليلاء.

تجمّعت على نفسي مثل (القريدس)، فتكوّرت تحت وركي عضلة الفخذ والأَلْيَة، أبْعَدَتا عظم الحوض عن الأرض، عاد طيف النوم سريعاً ليحملني إلى واحة الأحلام، لكنّ سعادتي لم تدم طويلاً فيها، فقد انتزعني من بين أفيائها صوت أحد المدرّسين، يرنّ في جَنَبَات الصالة الكبيرة، يؤذّن لصلاة الصبح بصوت لم يُخلق للأذان أو للوعظ، و يدعو النائمين إلى التعجيل بالصلاة قبل الفوت وبالتوبة قبل الموت.

بعد أن أدّينا صلاة الصبح جماعة، أسرعت إلى سرير أحلامي الكرتونيّ ليعانقه جسدي المتعب بشغف، فأنْعَم بنوم جديد هانئ، بدأت جوقة الأطفال يتناوبون الصراخ واحداً بعد الآخر، يوقظون أمّهاتهم، فقد حان وقت إرضاعهم.

إلى العمرة

صباح اليوم الثاني قال أبو عمّار: موعد إقلاع طائرتنا إلى جيزان قد تحدّد بعد ظهر اليوم، وأمامنا وقتٌ كافٍ لأداء العمرة؛ حُلْمُ المسلم أن يزور تلك الديار الطاهرة، كان قراراً مفاجئاً لنا، لم نكن نتوقّع أن نؤدي العمرة بهذه السرعة، كانت قلوبنا تسابقنا، ونحن في طريقنا إلى مكّة النور، سننتشي من عبق آثار النبوة.. ستحلّق أرواحنا في الفضاء الذي رفرف فيه وحي السماء، كان الطريق من جدّة إلى مكّة مستقيماً، ونحن نتّجه شرقاً، بدأت الحجارة السوداء تلتمع كالعقيق على جانبي الطريق، وعيوننا تتطلّع إلى الأمام، تشرب الضوء القادم من أرض الطهر مع شمس الصباح، المسافة بين جدّة ومكّة تقارب السبعين كم، كان الطريق واسعاً معبّداً، تَدْرُج فوقه السيّارة بانسياب لذيذ، زاد من بهجتنا الغامرة.

واجهَنا الجدارُ الخارجيّ للحرم المكيّ، يرتفع إلى أكثر من عشرين متراً مُصفّحا بألواح المرمر، الوقت ضحى، والشمس تضحك مُتَوقّدة في برجها الأسنى، ونحن بلباس الإحرام حاسري الرؤوس، قال أبو عمّار: من السُّنة أن ندخل الحرم من باب السلام، دُرنا حول الجدار الخارجي، وقلوبنا تهفو إلى رؤية الكعبة المُعظّمة، دخلنا الحرم الأوّل المبنيّ من طابقين في خمسينيّات القرن العشرين عام/1955/، متحفٌ من الرخام الزاهي بكل أنواعه وألوانه وأشكاله، مئاتٌ من الأعمدة الأنيقة الرشيقة، تنتصب سامقة، وتتدلى من السقوف الثريّات المذهّبة ومراوح الكهرباء، والأرض الصقيلة تضاهي في لمعانها أصفى المرايا، والزائرون والمعتمرون ينتشرون بثياب الإحرام كفراشات بيضاء في حقل ربيعيّ، منهم الراكع أو الساجد، ومنهم المسبّح أو المرتّل آياتِ الذكر الحكيم، كنّا في دهشة المكان وشوق إلى رؤية الكعبةِ منهلِ القلوب العطشى إلى منبع النور، الحرم الثاني من العهد العثمانيّ أصغر من الحرم الأوّل، مبنيّ من طابق واحد من الحجر الرمليّ، أعمدةٌ وقباب، يحضنُهُ الحرمُ الأوّلُ احتضانَ كأس الزهرة لتويجاتها، بدت الكعبة بثوبها الأسود القشيب، المزدان بآيات من القرآن مكتوبة بخيوط الذهب، أشرقت عيوننا تنهل من فيض الضياء، وانطلقت ألسنتنا بالأدعية والتهليل والتكبير .

قال أبو عمّار: إلى ماء زمزم أوّلاً، اندفعنا لنروّي ظمأنا من أطهر ماء تفجّر برداً ورحمة بين يدي ذلك الطفل سيدنا إسماعيل عليه السلام، بينما أمّه (هاجر) تهرول باحثة عن قطرة الحياة، على بعد ثلاثين متراً شرق الكعبة درجٌ عريض ينحدر إلى سبعة أمتار، توزّعت في صدر المكان ما يقرب من عشرين حنفيّة، يتدفّق منها الماء القراح النمير شفاء الأجساد والأرواح، يقف عند كل حنفيّة بضعة أشخاص من الظامئين إلى ينبوع الخلود، شربنا مع الشاربين حتى ارتوت الأكباد والنفوس، ثم توضّأنا، نُسبغ ترياقَ الحياة على أعضائنا، توجهنا إلى الطواف، (لبيك اللهم لبيك) ذلك الهتاف الخالد الذي يردّده الجميع بخشوع وإجلال، وهم يدورون حول الكعبة، انزلقنا في تلك الهالةِ النورانيّةِ -سوارِ الكعبةِ- التي يبلغ عرضها عشرة أمتار نطوف مع الطائفين، وألسنتنا تلهج بالدعاء والتكبير، قبّلنا الحجر الأسود، وبعد سبعة أشواط صلّينا ركعتين بين الكعبة ومَقام سيدنا إبراهيم، وتابعنا إلى المسعى بين الصفا المروة سبعة أشواط، تحلّلنا بقصّ شعيرات من رؤوسنا،

انطلقنا بعدها إلى شوارع مكّة وأزقّتها، وفي مخيلتنا أنّنا سنرى البيوت التي سكنها الرسول العظيم وصحبه الكرام، ونتبارك بجدرانها، ونقبّل التراب الذي وَطِئَتْه سنابك الفتح، وهي تنطلق إلى الدنيا نورا وهداية، سرنا في شوارعها، لم نرَ إلّا أبنية حديثة وفنادق باذخة، دخلنا حاراتها، فكان أقدمُ بيوتها يرجع إلى العهد العثمانيّ، ويعتمد في بناء الجدران على ألواح الخشب للعزل ومنع انتقال الحرارة إلى داخل الغرف، وذلك قبل اختراع المراوح ومكيّفات الهواء، وكانت للبيوت شرفاتٌ (أكشاك) من الخشب مصنوعة بشكل هندسيّ جميل، ذكّرتنا بشرفات (أكشاك) بيوت دمشق القديمة، وكانت الطرقات معبّدة بالإسفلت، كانت خيبتنا كبيرة، إذ لم نرَ من بقايا منزل الوحي إلّا الكعبة ومقام إبراهيم عليه السلام.

تجوّلنا في الأسواق التي تحوي من كل سلع الدنيا، وبأسعار أقلّ بكثير من أسعار بناء الملكة في جدّة، لأنّها أقلّ جودة، أو لأنّها سلع شعبيّة ليستطيع الحجّاج والزوّار على مختلف قدراتهم الماديّة أن يشتروا هدايا لأهليهم.

خاطبتُ أحد البائعين وهو في خريف العمر (يا حاج) فنظر إلي شزراً، بادرني أبو عمّار، قل له: يا (ولد)، سألته: لماذا؟ أجابني: كلمة يا (ولد) تعني يا شابّ، وهم يحبّون أن تخاطبهم بهذا اللقب.

تكبّدت الشمسُ السماء، وقاربت الحرارة الخمسين درجة مئويّة، سكن الهواء الجافّ، فبدأت أجسادنا تنضح عرقاً، ورؤوسنا الحاسرة تتلقى سهام الشمس، حقّاً ما يقوله العائدون من مكة: إن حرّها لا يطاق، لم ينقذنا إلّا الحرم المكيّ، فقد حان وقت صلاة الظهر، بعد أن أدّينا الصلاة جماعة تحت المراوح الكهربائيّة، طُفنا طواف الوداع، ودعونا ما شاء لنا الدعاء، ثم قفلنا عائدين، وقلوبنا متشبّثة بستائر الكعبة، وأرواحنا هائمة في أجواء القداسة، لا تريد أن تغادرها، تركنا صحن الحرم؛، ووجوهنا إلى الكعبة، ونحن نرجع إلى الوراء، كما أشار علينا الورعون من رفاقنا، لأنّ في ذلك زيادة في تقديس الكعبة، فالمسلم الحقّ لا يُوليها ظهره.

انتشرت رائحة اللحم المشويّ من أحد المحلّات، فاستفزّتنا حِمَةُ القَرَمِ كما يقول الهمذانيّ (إلى أكل اللحم)، فقد خوت بطوننا بعد هذه الرحلة المفاجئة والسعيدة، وأحسسْنا بالجوع بعد فطورنا الخفيف، لم يكن داخل محل الشوّاء ما يخفف من شدّة الحرّ سوى المراوح الكهربائيّة، كنت في هذا الجو اللاهب آكل، وحبّات العرق تسحّ من وجهي، وتتجمع في ذقني، وتقطر فوق صحن الطعام أمامي، فكنت أحاول مرّة بعد المرّة أن أجفّف العرق المتحلّب من جبيني ووجهي، فيعود وينبع من جديد، ودّعنا مكّة، وقلوبنا معلّقة بأجوائها الرحمانيّة.

إلى جيزان

اليوم الثاني من رحلتنا وفي أصيل الثامن والعشرين من أيلول حلّقت بنا الطائرة إلى جيزان، بلحظات بدت مدينة (جدّة) كخريطة من (الروليف) نافرة التضاريس، الماء الأزرق الساحر على يميننا، والأرض الصفراء التي تعكس ذهب الغروب على يسارنا، كانت رهبة السباحة في الفضاء هذه المرّة أخفّ من الأولى عندما أقلعنا من دمشق، وكأنّ الإنسان يعتاد على ركوب المخاطر.

خرجنا من مطار جيزان الصغير إلى جوٍّ خانق، لا يمكن أن يتخيّله إنسان، سرت وكأنّني في قاع البحر، كانت جدّة بالنسبة إلى جيزان متنزّها، ركبنا السيارة إلى المدينة الصغيرة الساحلة، نزلنا أمام مقهى شعبيّ، يتألف من مقاعد من الخشب مبعثرة في العراء فوق أرض ترابية، طول المقعد أكثر من مترين، وارتفاع مكان الجلوس المضفور من قشر القصب أكثر من متر، ويسمى (القَعّادة)، ويلفظون القاف كافا كما يلفظ المصريّون الجيم كافاً، كان بناءُ المقهى غرفة واحدة، يجري فيها تحضير الطلبات التي تقتصر على تقديم الشاي وعلب الكولا، وقد توّزع الرجال بالزِّي اليمنيّ فوق هذه القعادات، وأمام كلّ واحد نرجيلة، طولها يقارب المترين، يقال لها (مّدْعَة)، وطول خرطومها الغليظ يزيد على المترين والنصف، وكأنّه خرطوم رجال الإطفاء، ينفثون دخانَ مُعسّلٍ خاصّ، يقال له (الجراك)، رائحته غريبة مذهلة، كدتُ أن أتقيّأ منها، ولكنْ أين المفرّ!، كانوا يجلسون صامتين مقطّبين وكأنّ بينهم عداوة، لا يكلّم أحدهم الآخر، يعبّون من نراجيلهم ثم ينفثون غمامات سوداء، طلب أبو عمّار الشاي، فجاء مراهق يمني حافي القدمين، يدبّ فوق الأرض الترابيّة، بيده اليسرى سيجارة، وبيده اليمنى يحمل إبريق الشاي على صينيّة، أظنّها لم تُغسل منذ أن افتتح المقهى، عليها أكواب ترسبت فيها بقايا الشاي كالصدأ، لم أستطع أن أميّز طعم الشاي من طعم حديد الإبريق أو من طعم أيّ راسب آخر، كانت أعقاب السجائر والنفايات ترمى على الأرض المتربة، قال أبو عمّار سننام هنا، كلّ واحد يختص بقعّادة، ففي جيزان- وتسمّى في التنظيم الإداري للسعوديّة (منطقة) كما تُسمى في سوريا ومصر (محافظة)- لا يوجد إلا فندق واحد، وهو مخصّص للعائلات فقط، أجرة القَعّادة في الليلة أربعة ريالات، وأجرة الفندق للشخص الواحد خمسون ريالاً، بقينا ساهرين حتى انفضّ الزبائن، وخلت القَعّادات، جاءنا عمال المقهى بفرش من الإسفنج المتلبّد، وكأنّها ألواح من الخشب المضغوط، يعود تاريخ استعمالها إلى ما قبل افتتاح المقهى، فلا تستطيع أن تحدّد لها لوناً، ثم جاؤوا بوسائد ذكّرتني بوسائد الجيش، لم أستطع من قوّة رائحتها النفّاذة أن أنام، أو حتّى أضع رأسي فوقها، رغم التعب القاتل، أخرجت من حقيبتي منشفة الوجه، ووضعتها فوق الوسادة، رحتُ أخاطب المرحومة أمي: "آه يا حاجة فاطمة لو ترين الفراش والوسادة اللذين أنام عليهما".

استيقظت الشمس قبلنا، ففي السادسة صباحاً، كانت نظراتها الحارقة تغزو العيون والرؤوس، نهضنا لنبدأ كفاح يوم ثالث، قال أبو عمّار: لا يسمحون هنا في المقهى بقضاء الحاجة.. أو حتّى أن نغسل وجوهنا، ولا يوجد في جيزان دورات مياه (حمامات) عامة، على كلّ واحد أن يلتقط زجاجة بلاستيكيّة فارغة من زجاجات المياه المعدنيّة المستوردة الملقاة في الشوارع، وما أكثرها، ويملأها من الحنفيّات المُوزّعة في الطرقات.

توجّهنا إلى الميناء خارج المدينة الصغيرة- التي لا يزيد قطر الجزء المبني فيها على كيلو مترين اثنين- وبين صناديق البضائع الكبيرة المصفوفة بشكل متوازٍ خارج مينائها اختار كل واحد منّا زاوية مستورة ليقضي حاجته البيولوجية، بعد قليل جاءنا صوت أبو عمّار: انتبهوا، (فالنواسيّون) يختلسون النظرات إليكم، تلفتنا، كانت جماعة منهم قد رأونا، ونحن في طريقنا إلى الميناء، وفي أيدينا زجاجات الماء، فتبعونا، ووقفوا من بعيد، يختلسون النظرات إلى ..، فأخذنا حذرنا قدر المستطاع، أحدنا وكان الأجرأ فينا وقف نصف عارٍ يريهم سوءتيه اللتين تشبهان سوءتي الماعز وسط ضحكاتنا، لكنّهم رغم انكشاف أمرهم ظلّوا يتلصّصون علينا قدر ما تسمح به الفرجات بين الصناديق.

كنت أسير في الشوارع، وقد شمّرت أكمام البنطال حتى الركبتين من شدة الحرّ، أحد رفاقنا المتأخّرين عنّا ناداني: أنزل أكمام بنطالك، إنّهم يتغزّلون بساقيك، فقد سمعت أحدهم يقول: (يا عيني على اللحم الأبيض المتوسط).

اشترينا خبزاً وعلبة جبنة (كيري)، وعدنا إلى المقهى لنأكلها مع الشاي أو الشاهي كما يقولون، فهنا يضيفون حرفاً على الكلمة، فالشاي شاهي، والسكر سُنْكَر، والحمّص حُمْبُص ، والطحينة عصير السمسم طحينيّة، فالطحينة اسم مفعول على وزن فعيلة بمعنى مفعول مثل حبيب وجريح أيْ محبوب ومجروح، وإضافة التاء جائزة على المؤنث، فلماذا إضافة الياء المشدّدة الأخيرة؟، ويمكن للنُحَات المتحمّسين لفكرة أنّ أصول الكلمات ثلاثيّة الأحرف أوثنائيّتها، أن يستفيدوا من هذه الظاهرة هنا، ويدعموا آراءهم الصرفيّة .

في طريقنا إلى إدارة التعليم بدت المدينة وكأنّ زلزالاً قد ضربها بالأمس، فالأبنية الحديثة لا ترتفع أكثر من ثلاثة طوابق، مبنيّة من الأسمنت المسلح والقرميد الأسمنتيّ، ومن بين كلّ ثلاثة أبنية أو أربعة أبنية هناك بناء متشقّق الجدران بشكل مخيف، ومائل أكثر من متر إلى طرف واحد أو إلى طرفين وخالٍ من الناس، قال أبو عمّار: تربة جيزان سبخة هشّة، لا يثبت عليها البناء، لذلك لا ترى في المدينة طوابق كثيرة، كما أن عمر البناء أربع أو خمس سنوات فقط، وبعدها تميد الأرض، ويتشقّق كلّ شيء في البناء، ويؤول إلى الهدم، لأنّه لا يمكن إصلاحه، وهناك فكرة إنشاء مدينة جديدة لجيزان قرب مدينة (أبو عريش) التي تبعد ثلاثين كيلو متراً شرقاً عن البحر فوق أرض صلبة.

لكن هناك أبنية جيزان القديمة المبنيّة من قرميد الطين ومن طابق واحد فقط، لم يصبها التصدّع، وأكثر من نصف الشوارع معبّد بالإسفلت، والباقي ما يزال منذ عهد الطوفان ترابيّاً، كما أنشئ حديثاً رصيف مسوّر بالحديد على طول شاطئ المدينة، يقصده المدرّسون مساء للتريّض، إذ لا يوجد أيّ مكان آخر في جيزان يمكن أن يتنزّه فيه الإنسان.

كان قصر أمير جيزان على تلّة طبيعيّة شرق المدينة، ترتفع أكثر من ثلاثين متراً، وقد أحيط القصر بسور حجريّ، تتلألأ أنواره ليلاً بشكل بهيج .

وللإنصاف أقول: رأيت جزيرة ترابيّة أطرافها من الحجارة المنحوتة، عرض الجزيرة متر واحد، وتمتدّ إلى أكثر من خمسين متراً، تتوسط شارع المدينة الرئيس، وقد زُرع فيها بضع شتلات، وأطلّت منها زهيرات صغيرة خجولة، تحاول أن تفتح أجفانها أمام شمس جيزان .

كما رأيت جماعة قليلة من المعز ترعى في الطرقات، وتأكل أوراق الأكياس المهملة، إذ لا يوجد نبت في المدينة.

جيزان النائمة خارج أسوار التاريخ، استيقظت على هدير ناقلات النفط العملاقة، التي تمخر عباب اليَمّ من أمامها إلى أوربا وأمريكا، تأتي الناقلة فارغة رافعة رأسها كأفعى الكوبرا، تنظر بكبرياء، وتعود حبلى بالنفط العربيّ، فلا تكاد أن تَرى رأسها، وكأنّها تمساح، ابتلع غزالاً، وفر هارباً.

ما أصعب أن يرى المرء ثروات أمّته تُسلب أمام عينيه، ويقف هو ضعيفاً حائراً، لا يملك إلا النظرات والحسرات!!.

نهضت جيزان لتملأ رئتيها من عبير النفط، فوصلها الماء والكهرباء، وعُبِّدتْ فيها الشوارع الرئيسة، وأخذت تلعق من شهد الحضارة، فبدأ استيراد المواد الغذائيّة المعلّبة وقليل من الطازجة والسجائر بأنواعها وكذلك الأجهزة الكهربائيّة من كل أطراف الأرض، وأُفتتحت مخازن كبيرة، يضم بعضها كلّ ما في الدنيا من أنواع المعلّبات، وأخرى تخصّصت بالأدوات المنزليّة، وثالثة بالأدوات الكهربائيّة، ورابعة.. وخامسة..، فالاستيراد هنا حرّ ومفتوح، كنّا مرّة في مطعم (إكسلانت) الوحيد الراقي في المدينة، أخذنا نعدّد مصادر ما على المائدة من طعام، فكان أن ضمّت مائدتنا من مشرق الأرض إلى مغربها نتاج ما يقرب من عشرين بلداً، بدْأً من رزّ الصين، ومروراً بزجاجات المياه المعدنيّة من لبنان وغيرها، وانتهاء بفرّوج البرازيل، قال رجل مسنّ من جيزان، كان يجلس إلى مائدة جانبنا، ويسمع حديثنا: حكومتنا لا تحرمنا شيئاً، من أين لنا هذه الخيرات من قبل، لو تعلمون ماذا كنّا نأكل!!.. أدام الله فضل الملك علينا.

في السعوديّة إدارتان للتعليم منفصلتان تماماً، إحداهما للذكور والأخرى للإناث، إدارة تعليم الذكور بناء من ثلاثة طوابق بحالة جيّدة لم يلحقه التصدّع، بدأنا بالإجراءات اللازمة، سلّمنا كلّ الوثائق وجوازات السفر، وانتظر كلّ منّا قرار

تعيينه في إحدى قرى جيزان، لم يكن تعامل الموظّفين معنا بما يليق بأناس تركوا أهلهم وأولادهم، وجاؤوا من أقاصي الأرض ليعلّموا أبناء هذه البلاد النائيّة، كانوا يقولون عندما يتشكّى أحدنا من أيّة مضايقة: أنتم جئتم من أجل المال.. (لعن الله المال ولعن طالبه!).

وقفنا أمام إحدى الغرف لنوقّع الوثائق من رئيس قسم التعيينات، فُتح الباب، فرأينا شخصاً منبطحاً على بطنه فوق منضدته الكبيرة جداً والفاخرة جداً، بعد أن أزال من فوقها كلّ الأوراق وأدوات الكتابة، ورجلاه إلى الأعلى، يؤرجحهما في الفضاء، وهو ينتعل حذاء صيفيّا، كما تفعل المراهقات في الأفلام المصريّة القديمة، عندما تنبطح المراهقة على السرير، وتخابر حبيبها بالهاتف، وتؤرجح رجليها، وهي تبدي دلالاً وغنجاً، أخذ المستخدم (الفرّاش) منّا الوثائق، وقال لنا:

ـ رئيس القسم له مزاج خاصّ، فقد يوقّع عليها فوراً، أو يؤجّل التوقيع يوماً أو يومين.

قلنا له:

ـ ونحن ماذا نفعل؟!

ـ تنتظرون حتّى يروق مزاجه.

سمعت المتنبيّ يهتف غاضباً، وهو عائد مع سيف الدولة من معركة الحدث الحمراء:

وتعظُمُ في عين الصغير صغارُها وتصغُرُ في عين العظيم العظائمُ

فتح الفرّاش الباب من جديد، فدفن رئيس القسم رأسه بين كتفيه ومنضدته كطفل يلعب لعبة الاستخفاء، ربّما لا يريد أن يرانا، وهو يلّوح بيده للفرّاش: إلى الخارج إلى الخارج.. كان للنعمان ملك المناذرة يومان في العام، يومُ سَعْدٍ، يكافئ فيه أوّلَ من يصادفه، ويومُ نَحْسٍ يقتل فيه أوّلَ من يصادفه، أمّا هذا الملك الأخرق الممدّد فوق عرشه الزائف، فكلّ أيّام العام لديه سعد أو نحس، يحدّدها مزاجه، ولا أظنّه يكافئ أحداً يوم سعده.

يبدو أن مزاج صاحبنا كان عكراً جدّاً هذا اليوم، فطلبوا منّا أن نعود في اليوم التالي علّ مزاجه يروق، ويوقّع على القرارات.

رافقْنا أحدَ زملائنا إلى إدارة تعليم البنات، ليسأل هناك عن أمور تخصّ زوجته المعلّمة، قال لنا، ونحن على بُعْدِ خمسين متراً: قفوا هنا، فالاقتراب من الإدارة ممنوع، تقدم بحذر، فوقف عملاق كان يجلس أمام باب الإدارة، وأخذ يلقي على زميلنا أسئلة، يبدو أنّها صارمة، ثم أشار بيده أن انصرف، عاد زميلنا المدرّس، وهو يقول: لا يجوز الدخول إلّا للإناث فقط.

تربّعت الشمس ملكة على عرش الظهيرة، ولبس كلّ شيء ظلّه، رُحنا نطوف الشوارع والأزقّة الضيّقة، إذ لا مكان نأوي إليه، أُغلقت المساجد بعد صلاة الظهر، كنت أبلّل شملة بالماء، وأضعها على رأسي عدّة طيّات، لكنّ أشعة الشمس العموديّة كانت تبخّر الماء بدقائق، فتعود الشملة جافّة كالقشّ، مررنا بجانب أرض خالية، يحيط بها سور من الحجر وطيء، قال أبو عمّار: "هذه تربة جيزان الأصليّة". كانت الأرض سبخة، تربتها الرصاصيّة كالمُهْل، تتصاعد منها فقاعات ملتهبة، كأنّها ماء يغلي على نار هادئة، وتتصاعد منها رائحة تشبه رائحة السمك المتفسّخ، رائحة فريدة خاصّة بجيزان، تنتشر هنا وفي أكثر من مكان من شوارع المدينة، تابع أبو عمّار: "إذا دُفن الميّت هنا فإنّ جثّته تتحلّل وتذوب في عام واحد"، لا أدري لماذا انتابني شعور بالخوف، اشتدّ العطش، وجفّت ألسنتنا، فكنّا نسرف في شرب المياه المعدنيّة المستوردة، فيزداد التعرّق فجأة، ويزداد معه العطش.

شاهدنا شابّين أنيقين لطيفين بثياب بيضاء نظيفة، عرَفونا من لباسنا وأشكالنا، قال أحدهما:

ـ كيف تتحمّلون هذا الحرّ المُميت؟!، نحن من أبناء المملكة من المدينة المنوّرة، وسوف نغادر جيزان فوراً دون أن ننهي أعمالنا، لأنّنا لا نستطيع أن نتحّمل هذه السعير.

أجبته :

ـ مكره أخاك لا بطل.

قال أبو عمّار:

ـ هناك مسجد على الشاطئ لا يغلق أبوابه.

قصدنا واحة الخلاص هذا وسط هجير لاهب، في طريقنا عبر أزقّة المدينة الضيّقة توزعت المساجد الصغيرة، كلّ خمسين متراً تقريباً هناك مسجد، لكنّها جميعها مغلقة، لا تفتح أبوابها إلّا في أوقات الصلاة، وفي كلّ مسجد برّاد للماء، وصلنا مسجد الشاطئ، كان حقّا بلا أبواب، لكن نسمات كرياح السموم، تأتي من جهة البحر تشوي الوجوه، لم نستطع أن نمكث طويلاً، خرجنا تائهين من جديد، قال أبو عمّار: إلى مطعم (إكسلانت) عدنا نخترق المدينة من غربها إلى شرقها، كان المطعم مثل (فِيْلّا) وسط بيوت طينيّة، استقبلتنا نسمات باردة، أطفأت لهيب أنفاسي، كانت أجهزة التكييف تهدر بأقصى طاقتها، نظرت إلى وجهي في مرآة جداريّة، كان لونه خمريّا مشوباً بزرقة، خفتُ أن أثبّت نظري في وجهي، تناولت من الغداء لقيمات (كبسة فوقها قطعة من الفرّوج)، فمنذ أن وطئنا أرض السعوديّة والفرّوج هو وجبة الغداء الذي انتشرت أماكن بيعه في كلّ منعطف وفي كل ركن.

وبعدها لا بدّ من مغادرة المطعم، تركناه، كمن يترك أرواح الغوطة، قال أبو عمّار: "أعرف صديقاً فلسطينيّاً يسكن في جيزان"، كنّا كالأطفال الخائفين المتشبّثين بأذيال أمّهم ،تقودهم حيث تشاء، تبعناه، مررنا بالمقهى- فندقنا الأثير- كان خالياً من دبيب الحياة، تلسعة الشمس بسياط ناريّة، فتكاد الأرض الترابة وأخشاب القعّادات أن تشتعل.

استقبلنا الصديق الفلسطينيّ في بيته المبني من طابق واحد من القرميد الطينيّ، بوجه باشّ، ورحّب بنا بحرارة، رغم كثرة عددنا، لم يكن في الغرفة مكيّف للتبريد، لكنّ الحرّ في داخلها أخفّ من فضاء الظهيرة، كانت المفاجأة حين رأيت شخصاً يصلّي، أنهى صلاته، وقام يسلّم علينا، وقف أمامي صامتاً، ثم تابع وجلس، عرفته، كان منذ بضع سنوات معلّماً وكيلاً في إحدى المدارس الابتدائيّة في مديني (حلب)، كان عضواً في إحدى المنظّمات الفدائيّة الفلسطينيّة، كان وجوديّاً دَهريّا، يبشّر بأفكاره بين الطلّاب، وكانت المدرسة في حيّ شعبيّ متديّن متزمّت ، فنقل الطلّاب إلى أهليهم آراء هذا المعلّم المُلحد الذي لا يؤمن بالله ولا بالدين ولا بالآخرة، فجاء الآباء ثورةَ غضبٍ، يريدون أن يبطشوا بهذا الزنديق الكافر الذي يريد تشويه عقيدة أبنائهم، لكنّ حكمة مدير المدرسة (أحمد الأفندي) رحمه الله استطاعت أن تمتصّ غضبهم، وأن تُحَوِّل الأمر إلى سوء تفاهم، لكنّ هذا المعلّم ظلّ متمسّكاً بآرائه، يجاهر بها، ويدافع عنها بقوّة عندما تُعقد جلسات المعلّمين، ويحتدم النقاش.

أردت أن أتأكّد من شخصيّته، فقلت له: " كيف حالك يا أستاذ (أحمد)"، نظر إلي برهة، ثم أجاب بكلمة واحدة فقط: بخير"، إنّه هو، كيف انقلب هذا الرجل كما يقال مئة وثمانين درجة، من النقيض إلى النقيض، أهي مراءاة لتتيسر أموره، ولتكون التقارير التي يرفعها الرجال السريّون عنه وعن كل مدرّس إيجابيّة؟ أمْ أنّ الرجل انفتح صدره للإسلام، وهداه الله سواء السبيل؟ أم أنّ السلطات هنا- التي تقوّم الإنسان من خلال التزامه بأداء الصلوات الخمس- تعرف حقيقته وحقيقة أمثاله، لكنّها تستجيب لضغوط خارجيّة، تجبرها على قبول كلّ الشباب الفلسطينيّين في التدريس أو العمل في المملكة، وبخاصّة من كانوا أعضاء في المنظّمات الفدائيّة، كي يتخلّوا عن الكفاح المسلّح، وينغمسوا في حمأة المال، فيشوّه نفوسهم وعقولهم، كان الأستاذ (أحمد) يتحاشى محادثتي أو فتح أيّ نقاش معي، كي لا أطرح عليه أيّ سؤالٍ محرجٍ، أو أذكّره بآرائه السابقة، وكنت بدوري أتجنّب النظر إليه أو التحدّث معه لكي أطمئنه أنّني لا أهتمّ بما مضى.

تبادلنا الحديث الذي كان أكثره يدور حول جيزان وحرّها والتدريس وهمومه، شربنا الشاي، ودخّن أكثر الحاضرين، لاحظت أن دخان (الروثمان) هو النوع الشائع، ليس بين المدرّسين فحسب، بل بين جميع المدخّنين الذين صادفتهم في هذه المدينة الغافية في أحضان منخفض جيزان، والتي جاءتها الحضارة مع فورة النفط مفاجئة، فنهضت مبهورة تلعق قشور الحضارة.

بدأت أحسّ بحُرقة شديدة في جسدي، كشفت عن بطني، فإذا هو أحمر جوريّ، يكسوه ويكسو نصف جسمي الأعلى حتّى الكتفين طفْح جلدي مخيف، تعجّب أصدقائي من هذا المنظر، فإذا بصديقنا (اليبرودي) يكشف عن بطنه أيضا، لقد تفقّع جلده الأبيض الناعم كجلد الطفل، وامتلأ بالمَصل، كما لو صُبَّ عليه ماء يغلي، كان المسكين صامتاً، يتحمّل ألمه، ولا يشكو، فهو أكبرنا سنّاً، وقد تجاوز الأربعين من عمره، جاء من بلدة (يبرود) السوريّة، البلدة التي تكلّل الثلوج القمم المحيطة بها حتّى في تموز، وكأنّها أخذت اسمها من البرد القارص فيها على مدار السنة، قال أبو عمّار: إلى المشفى فالطبّ في المملكة مجانيّ للجميع.

ودعّنا مُضيفنا شاكرين، وقصدنا مشفى جيزان، في العيادة الجلديّة طبيب هنديّ، يتكلّم الإنكليزيّة المشوبة بالهنديّة، عرف مرضنا قبل أن نشرح له، قال: يجب أن تبقوا يومين على الأقل في جوّ بارد، وألّا تتعرضوا للحرارة أو للشمس، ضحكنا ثم أخذنا الدواء المجانيّ أيضا، عليّ كما قال الطبيب أن أغتسل ثلاث مرّات في اليوم بصابون خاصّ، ثم أدهن الجلد بمرهم مهدّئ ومعالِج، ولكنْ أين المكان الذي يمكنني أن أقوم فيه بهذه العمليّة، في المساء قال أبو عمّار: هيّا إلى جنوب جيزان، فهناك شاطئ صالح للسباحة.

لم نصادف نساء في الطرقات والساحات العامّة، وإنّما رجال بزيّ يمني (الحوكة والقميص القطنيّ الداخليّ والزنّوبة)، وجماعات من الشبّان المتسلّلين من القرن الإفريقي، من الصومال وإرتيريا وغيرهما، جاؤوا للعمل دون تصاريح بالدخول أو العمل، والسلطات تعرفهم، لكنّها تغضّ الطرف عنهم، فهم يَبدون للعيان وسط المدينة وفي الأسواق، يعملون عتالّين أو في أي مهنة، يأنف من العمل بها أبناء المدينة الأصليّون، خصوصا بعد طفرة الذهب الأسود، حيث أصبح الجميع تجّاراً، أو يتخيّلون أنّهم تجّار، كانت تبدو على هؤلاء الشبّان المتسلّلين، سيما الشقاء والتشرّد، ولا أظنّهم يتورّعون عن ارتكاب الموبقات والجرائم.

مع تطور الحضارة وتوسّع المدن في العصر الحديث، تبرز ظاهرة انتشار العبثيّين والمنحرفين من المراهقين الذين يتركون مدارسهم، أو لم يدخلوها أصلاً، وينطلقون ليحقّقوا الذات أو رغبات الذات، يتمرّدون على قيود المجتمع، بعد أن فشلوا في كل مجالات الحياة، وهنا في جيزان كما في كلّ مدينة ينتشرون في مركز المدينة وساحاتها العامّة، يَنْتَشون بركوب الدرّاجات الناريّة- ويسمّونها هنا في جيزان (الدبّابات) والمفرد دبّاب- ينطلقون بها بسرعات جنونيّة، يمرّون بين السيّارات، ويدورون حول الساحات وفي المنعطفات، يقفون فجأة، فتدور الدرّاجة في مكانها دورة كاملة مع أصوات صرير المكابح والدواليب، ثم ينطلقون من جديد بنشوة ما بعدها نشوة، وكأنّ الواحد منهم يقول: (هأنذا الرجل، ولست كأيّ رجل)، وفي جيزان رفد المتسلّلون من القرن الإفريقي هذه الظاهرة، وساعدوا على نشرها دون أن يلتفت إليهم المسؤولون فيما يبدو.

وصلنا البحر، كَوَّمَ كلّ واحد منّا ثيابه على صخرة، ونزلنا إلى المياه الدافئة للسباحة والاستشفاء من مرضنا الجلدي، كان الشاطئ يكتظّ بالسبّاحين والمتفرّجين، كنّا نتمتّع بسباحة لذيذة بعد نهار ظالم، كانت الدرّاجات الناريّة تطوف قرب الشاطئ، اقتربت إحدى الدرّاجات من أكوام الثياب، وكان عليها مراهقان، بغتة أمسك الجالس في المؤخرة بكلتا يديه إحدى كومات الثياب، وانطلقت الدرّاجة سهماً نارياً دون أن يُتاح لنا وقت للصياح أو طلب المساعدة، ونحن داخل الماء نسبح.

كان من المفروض أن تعطي إدارة التعليم كلّ مدرّس في اليوم الأوّل من وصوله (بدل سكن)، ومقداره ثمانية آلاف ريال، لكي يساعده هذا المبلغ على استئجار بيت وغير ذلك من النفقات العاجلة، فظنّ صاحبا الدرّاجة أنّنا قبضنا (بدل

السكن)، فقاما بالسرقة جهاراً نهاراً، وعلى مرأى الجميع. كانت الشمس قد بدأت هي الأخرى تستحمّ في البحر، عدنا إلى فندقنا (خمسة نجوم) الذي وضعنا فيه حقائبنا.

أسمع عن الهبيّين والعبثيّين والبوهيميّين والوجوديّين في أوربا وأمريكا التائهين في الشوارع والحدائق، الذين اختاروا طوعاً حياة التشرّد والضياع، يتحرّرون من قيود المجتمع، ويتمرّدون على قوانينه وأخلاقيّاته، ربّما انتقاماً من جوره وظلمه، أو رفضاً لقيمه التي أنتجت حربين عالميتين خلال ربع قرن، أما نحن- المدرّسين في جيزان- فإنّنا نمارس هذا التشرّد والانفلات العبثيّ قسراً وإرغاماً.

عدنا سيرتنا الأولى، ونمنا ليلتنا الثانية في فندق الأحلام، اليوم التالي كان يوم سعد، فمزاج رئيس قسم التعيينات كان رائقاً، فحمدنا الله على نعمه الكثيرة، أخذ كلّ منّا قرار تعيينه و(بدل السكن) ثمانية آلاف ريال، قال أبو عمّار:

ـ يجب أن يحتفظ كلّ واحد بثلاثة آلاف ريال، ويودِع الباقي في المصرف، وأنا أفضّل مصرف الراجحي.

قلت له حسب سذاجتي في التعاملات الماليّة:

ـ إنّه مصرف خاصّ ليس حكوميّاً، وأخاف أن يعلن إفلاسه في أيّ وقت، ويضيع جهد عام كامل.

ردّ مبتسماً:

ـ اسكت كي لا يسمعك أحد، الراجحي أغنى من الدولة ذاتها، ويستطيع أن يُقرض خزانتها إذا دعت الحاجة.

وقفت في المصرف أمام كوّة الإيداع، وأمامي مراهق، يدفع بصعوبة كيساً كبيراً من القماش برجله تارة، ويسحبه بيديه تارة أخرى، وأنا أتأفّف منه ومن حركاته التي تصيب بطني ورجليّ، وصل إلى النافذة، وفتح الكيس وقال لأمين الصندوق: هذه لـ (با حسن)، كلّ ربطة خمسون ألفا. وأخذ يخرج ربطات الريالات ويناوله: ربطة.. اثنتان.. ثلاث .. وأمين الصندوق يستلم منه الربطات ويصفّها جانبه دون أن يعدّ ما تتضمّنه كلّ ربطة، لأوّل مرّة أرى أوراقاً نقدية بهذه الكميّة، خجلت من المبلغ الذي سأودعه، وأنا أزجر المراهق وأظهر عليه فوقيّة وتعالياً .

قال أبو عمّار: علينا أن نحجز بالطائرة إلى الحجّ ذهاباً وإياباً، فربما لا نجد أمكنة بعد ذلك، قصدنا شركة الطيران السعوديّة، طلب أبو عمّار من الموظّف المختصّ -وكان شاباً في العشرينيّات من عمره- أن يحجز لكلّ منّا بطاقتين، الأولى ذهاباً من جيزان إلى المدينة المنوّرة، والثانية أي بطاقة العودة من جدّة إلى جيزان، فحجز لنا الموظّف من جيزان إلى المدينة ومن المدينة إلى جيزان، قال له أبو عمّار: سنعود من المدينة إلى مكّة المكرّمة بالسيّارة، ثمّ من جدّة –وهي قريبة من مكّة- إلى جيزان بالطائرة، قال الموظّف لقد كتبت البطاقات، ولن أغيّرها، ردّ أبو عمّار: لماذا تريد أن تغيّر خطّ سير رحلتنا؟! أجاب الموظّف إنّ للبطاقات الفارغة ثمن، فمن يدفع ثمنها؟، قال أبو عمّار نحن ندفع ثمنها، أثناء المجادلة ارتفع صوت المؤذّن من مسجد مجاور لصلاة الظهر، فأغلق الموظّف الكوّة الزجاجيّة أمامه دون أن يولينا اهتماماً، فالدوائر الحكوميّة في كلّ المملكة تتوقف عن العمل في أوقات الصلاة بما يقرب من ساعة، لكي يؤدّي الموظّفون صلاتهم، ذهبنا إلى مسجد قريب، أدّينا الصلاة وعدنا، والكوّة أمام الموظّف مغلقة، انتظرنا أكثر من نصف ساعة، حتّى فتح سيادته باب الكوّة وقال: ماذا تنتظرون؟!، لن أغيّر البطاقات ولو دفعتم ثمن الفارغة، أريد أن تسافروا (على كيفي)، كما أريد، هل فهمتم؟!، ذهبنا إلى رئيس فرع الشركة، وشرحنا له القضيّة، فقال لا بدّ أنّكم أثرتموه بطريقة ما، فانزعج وتوتّر، اتركوه الآن، وعودوا في الفترة المسائيّة، فيكون قد جاء موظّف آخر. في المساء كان الموظّف الجديد رائقاً منبسطاً، فتعجّبنا من ذلك، وحمدنا الله على هذه المِنَّة، شرح له أبو عمّار طلبنا بهدوء، وهو يرشوه بابتسامات الود وعبارات المديح والإعجاب، فحجز لنا ما طلبناه، وودعناه شاكرين له جميل صنعه، وودعنا جيزان آسفين على تركها.

إلى (قُوّا)

وجْهَتُنا الجنوب، ركبنا سيّارة أجرة، وتركنا جيزان خلفنا تشتعل في وقدة الظهيرة، بعد دقائق كنّا وسط الصحراء ، يشقّها الطريق الإسفلتيّ المستقيم، كانت الرمال اللعوب تمد أطراف عباءتها، فتغطي أجزاء من الطريق، فتضطر السيّارة إلى الهرب يميناً أو يساراً ، وأحيانا تدوس أهداب الكثبان الطويلة، سألت السائق: لماذا لا يزيلون الرمال عن الطريق، أجابني: كلّ يوم يقوم العمال بإزاحة الرمال، لكنّها تعود في اليوم التالي، إنّها الرياح، تلعب بالرمال، وما من حيلة لمنعها.

هذه هي الصحراء أخيراً ، مسكن الأجداد ومهوى أفئدة العشاق، هذه التي سُحر الشعراء بذهب رمالها، فهام في سمائها طائف وحيهم، وعطّروا أجواءها بأنفاس وجدهم وزفرات شوقهم.

بدأ مؤشر الحرارة يرتفع رغم هسيس المكيّف الياباني القويّ، الذي ينفث برداً وسلاماً، والسيارة تُغِذُّ الخُطا فوق الشريط الأسود الذي ابتدعته يد الحضارة وسط أمواج الكثبان الصفراء، التي لا تنبض فيها حياة، السير شبه معدوم على الطريق، مرت بضع سيّارات من الاتجاه المعاكس، ماذا لو تعطّلت سيارتنا وسط بحر الرمال.

اعتذر السائق وقال: سأدخل طريقاً فرعيّاً لدقائق لأوصل مدرّساً إلى قرية (مضايا)، كان المدرّسون في جيزان يتحدّثون عن هذه القرية الأمل، التي لا يُعيَّن فيها إلّا من يحمل توصية خاصّة من أمير جيزان، فهي حلم المدرّسين وفردوسهم الجيزانيّ، كنت أتخيّلها كسميّتها (مضايا) قرب دمشق، الجنة السحر التي تضطجع كسولة على سفح الزبداني الشرقيّ، ويعبث بغدائر أشجارها رذاذ ينبوع بردى، دخلت السيّارة يميناً، تسير فوق الرمال، فقد انقطع الطريق الإسفلتيّ، اتسعت عيناي تجوس تلال الكثبان على طرفي الطريق، بدت من بعيد قرية صغيرة تناثرت فوق رمالها عشرات الأكواخ المنصوبة من القصب، وعلى بُعد مئتي متر عن القرية انعزل كوخ من القصب أيضاً، وقفت السيّارة أمامه، فخرج منها شبحان صَبَغَتْهما الشمس والحرارة بلون فارس الصحراء عنترة العبسيّ، خِلْتُ أن الأرض قد انشقت وخرج منها هذان الشبحان الأغبران الأشعثان، يلبس كلّ شبح سروالاً شرعيّاً، يغطي عورته فقط، بدأا يرحبّان بصديقهما المدرّس الجديد، كنت أسمع عن الأشباح، وأتخيّلها، والآن هي حيّة أمامي بخِلْقَتِها العجيبة، لا أدري كيف زارني شيطان الشعر في هذه اللحظات وأجرى على لساني هذين البيتين:

رملٌ ورَمْضاءٌ وشمسٌ تسطعُ أشباحُ دَوٍّ من جُحورٍ تَطْلُـــعُ

وتَخالُهُمْ بَهْماً وليسوا ما ترى جِنّانُ عَبْقَر لو رأوهمْ أُفْزِعُـوا

الرمضاء: شدة حرّ الشمس أو الأرض التي حَميتْ من حرّ الشمس / الدَّوُّ: الصحراء الواسعة / بَهْماً: صغار الضأن أو المعز / جِنَّان: جمع جانّ / عَبْقَر: يقال إنه موضع يكثر فيه الجِنّ.

أهذه (مضايا) حلم البائسين أمثالنا؟!، إذن كيف هي قريتنا التي تبعد مئة كيلو متر في متاهات الصحراء؟!، انكمشت في مقعدي صامتاً، التفتُّ إلى زميلي الدمشقيّ الناعم الذي عُيِّن معي في نفس القرية، كان أكثر صمتاً وبَهْتاً وربّما خوفاً.

لا شكّ أنّ سكنى المدرّسين قريباً من أهالي القرية أو الاختلاط بهم محرّم شرعاً وأخلاقاً كما علمْنا، لذلك أفردوا المدرّسين هنا عن أكواخ قريتهم إفراد البعير المعبّد.

عادت السيّارة تخبّ بنا فوق مواطئ أقدام الأجداد ومقيل بُعْرانهم، أخذ خيالي يستعيد صور الصحراء التي تناقلتها الكتب، وأُعجب بها الأقدمون والمُحْدثون، وكثيراً ما رَويتُ لطلّابي سيرة ذلك الأعرابيّ الذي سألوه عن الصحراء والعيش فيها: "كيف تصنع إذا انتصف النهار، وانتعل كلّ شيء ظلّه؟، فقال: وهل العيش إلّا ذاك؟! يمشي أحدنا ميلاً، فيرفضّ عرقاً كأنّه الجُمان، ثم يَنْصُبُ عصاه ويلقي عليها كساءه، وتقبل الرياح من كلّ جانب، فكأنّه في إيوان كسرى".

كتاب المختار

وزارة المعارف السورية

صفحة / 13 / عام / 1950/

وقيل لأعرابيّ: من أين أقبلت؟

قال: من هذه البادية، ما إنْ أريد بها بديلاً، ولا أبتغي عنها حولاً، ونحن بأرْفَهِ عيش وأوسع معيشة وأسبغ نعمة، ليس فيها أذى ولا قذى، وربما والله أكلْنا القَدَّ، واشتوينا الجِلْدَ، فلا نعلم أحداً أخصب منا عيشاً. / المصدر السابق /

بعد ما يقرب من خمسين كيلو متراً وصلنا قرية (المسارحة)، ويقال لها: (الأحد) لأنه يقام فيها سوق للبيع والشراء كل يوم أحد، يتوافد عليها الريفيّون من كل القرى المجاورة، فيسمّون قراهم إلى جانب أسمائها الأساسيّة باسم اليوم الذي يقام فيه السوق، فقرية أخرى يقال لها (الجمعة) أو (الإثنين) وهكذا.

نزلنا في أحد المقاهي الشعبيّة الشبيهة بمقاهي جيزان لنستقلّ سيّارة أخرى إلى قرية (الخوبة)، لم يكن عدد الركاب كافياً فجلسنا ننتظر، كانت البيوت والدكاكين مبنيّة من الطوب (طين مجفّف على شكل قوالب تشبه القرميد أو البلوك) ومطليّة بالملاط الرصاصيّ اللون، هذه البيوت تزاحم ما تبقى من بيوت قليلة منصوبة من القصب، فالحضارة تزحف إليها لتستبدل بالأكواخ القصبيّة بيوتاً من الطوب، كانت كلّ المباني من طابق واحد فقط، وكان قسم من أرض الشوارع معبّداً بالإسفلت وباقي الشوارع ما يزال ترابيّاً كجيزان.

قال لي أبو عماد: "يجب أن يكون مع كلّ منّا آلة حادّة يدافع بها عن نفسه أمام أيّ طارئ"، اشترى كلّ منّا موسى حادّاً كبيراً من النوع الذي يُطوى، يخرج النصل ويرتدّ إلى مجراه بحركة مفصليّة سريعة، وضعت الموسى في جيبي، لأوّل مرّة في حياتي أحمل سلاحاً -إن سُمّي الموسى سلاحاً-!، أحسست بأنني أصبحت خطيراً مرهوب الجانب، انتابني شعور رجال العصابات وقطّاع الطرق كما نرى في السينما، خطر لي أن أجرّب الموسى، أخرجت النصل من مخبئه بعد جهد، فانتصب كالسيف، شعرت بالزُّهُوّ..، هكذا يكون المغامرون.. رجالاً أشدّاء!، عندما أردت إعادة النصل القاسي الإغلاق إلى مجراه، شددتُ الحلقة في مؤخّرته بسبابة يدي اليسرى، وطويت طرفيه باليمنى، فارتدّ النصل بقوّة، وكان أن وقعت سبّابة يدي اليمنى على حافة المجرى، فشطرت شفرتُهُ طبقةً من سطح السلاميّة الأولى وتدلّت، قطعت الطبقة المتدلّية، وبدأ النزف، لم أجد ما أوقف به الدم، وسيّارتنا تستعدّ للانطلاق إلّا أن أضع فوق الثُّلْمَة محارم ورقيّة، أغيّرها كلّ لحظة بعد أن تمتلئ بالدم. خجلت أن أخبر أبو عماد بما جرى معي، فشاهد الجرح وقال: "ألم أحذّرك وأطلب منك الانتباه الشديد عند استعماله!". بقي الجرح أيّاماً، تشتدّ الحرقة ويشتدّ الألم عندما يبتلّ بالماء، لقد كانت إصبعي أولى ضحايا هذا الموسى (القلّاب)، وللحقيقة أقول: لم أستعمل الموسى طوال العام حتّى صدئ نصله في مجراه.

قبل صلاة العصر تابعنا جنوباً بسيارة جيب كبيرة دون غطاء ودون أبواب، يقال لها (شاس) وُجْهَتُنا (الخُوبة) محطّتنا الأخيرة قبل قريتنا (قُوّا)، بدأت البيئة تختلف، وكذلك التضاريس، بدأت الأشجار البرية تظهر متوزّعة عشوائياً، ومساحات من الأرض مسّتها يد الطبيعة السحريّة فاخضوضرت، واستطال فيها النبات، لم نصدّق أنّ في جيزان خضرة وحياة، لم يكن هناك طريق معبّد، أو حتّى مرصوف، فأخذت سيّارة الجيب تسير في وادٍ حفرته مياه السيول المنحدرة من جبال اليمن، بدأنا نتراقص مع حركة السيّارة المضطربة، التي تصعد صخرة، وتنزل حفرة، وتدور حول شجرة، ثم تقف لحظات حتّى يغيّر السائق اتجاه ذراع الحركة، ويعشّق المسنّنات الإضافية لتتضاعف قوّة الدفع، وترتقي مرتفعاً شبه قائم يعترضنا، فنميل، ونتمسّك بأعمدة السيّارة العارية من الغطاء، وحولنا الركّاب بزيّهم اليمنيّ الحوكة والقميص الداخليّ فقط، ينظرون إلينا بإشفاق، فقد اعتادوا ركوب هذا الطريق، وقد عرفنا الآن لماذا اختاروا سيّارة الجيب بدواليبها الكبيرة لتمخر عُباب هذا الوادي .

كان من بين الركّاب مدرّس وزوجته النحيلة، وقد تمسّكت بزوجها، وهي تنظر حولها بعينين يتطاير منهما القلق والتوجّس، تحاول أن تُخفي دمعات تنحدر على خدّيها، وتجهد في ألّا نراها، حوّلتُ عينيّ عنها كي لا أحرجها.

صاح زميلي الدمشقيّ: انظروا..انظروا.. نسر يأكل فريسة، لأوّل مرّة أرى طيراً جارحاً على بعد أمتار، لم يلتفت أحدٌ من الركّاب اليمنيّين، ولم يلتفت النسر أيضاً على صوت السيّارة، وكأن الجميع هنا متعايشون متفاهمون، أمّا زوجة المدرّس النحيلة فقد ازدادت التصاقا وتمسّكا بزوجها، وهي تتلفّت وتنظر إلى النسر بفزع صارخ، عندها أيقنّا أنّنا بدأنا نزحف نحو الحياة البريّة الحقيقيّة.

بعد ساعة على اقتحام سفوح جبال اليمن، وقف شابّ بثوب أبيض نظيف على جانب الطريق، وأشار بعصاً من الخيزران، فتوقفت السيّارة، قال السائق: يجب أن ننزل، هنا مركز حدوديّ للتفتيش، ترجل الجميع عدا المرأة، فقد أشار إليها الشابّ بالبقاء في السيارة، أخذ يتفرس في الوجوه بنظرات اتهام، ثم طلب من المدرّسين فقط وثيقة الإقامة، فنحن -المدرّسين الثلاثة- الوحيدون من بين الركاب نلبس البنطال، أطال النظر في الوثائق- ربما كان يهجّي الحروف- ثمّ أدخلنا جميعنا إلى خيمة، في صدرها رجل، يجلس على بساط، ويتكئ على عدّة وسائد، حاسر الرأس يلبس دشداشة بيضاء، لا أدري كيف تقوى الأرض على حمل جبروته، فلا تميد أو تخسف، جلسنا على بساط قبالته صامتين، قدّم له الشابّ الوثائق، فلم ينظر فيها، ربّما كان يرى نفسه أو مهمّته أكبر من ذلك بكثير، بل أشار بيد متثاقلة كرجل آلي دون أن يتكلّم إلى شابّ أمرد أن يقدّم لنا الشاي.

راح هذا العتيد يتأملنا واحداً واحداً بصمت واتّزان، ربّما كان يشكّ بأنّنا جواسيس أو مدسوسون على المملكة، بَيْدَ أنّ أشكالنا لم تُدخل الريبة إلى نفسه، وأنّنا مسالمون، فحدسه الذي لا يخيب حكم علينا بالبراءة.

خرجنا بعد أن شربنا الشاي مكرهين دون أن نسمع من أحدهم كلمة واحدة، وكأنّهم خرس، يتعاملون بلغة الإشارة.

تابعت السيّارة رحلتها جنوباً في وادي (التيه)، وتابعنا في داخلها رقصَنا المتكسّر الذي يشبه (البريك دانس)، أشفقتُ على نفسي من أن أصاب بانزلاق الفقرات، فتمسّكت بقضبان السيّارة بكلّ قوّتي، كي أحافظ على استقامة عمودي الفقري، عندما تابعت السيّارة جنوباً علمنا أنّنا دخلنا فعلاً المناطق اليمنيّة، بعدما اجتزنا نقطة التفتيش الحدوديّة.

توارت الصحراء نهائيّاً، وبدأت الأرض تكشف مفاتنها عن بقاع خضراء، وتنتصب على امتدادها عرائس الأشجار البريّة، رأيناها عرائس حقاً بعد هول الصحراء وامتداد كثبانها اللامتناهي، هذه بشارة خير، لقد صدق موظّف التعيينات بوعده، عندما قلت له: نحن من مناطق باردة، فهلّا اخترت لنا منطقة مناسبة.

دخلنا (الخوبة) بعد ساعة ونصف من الرقص الحرّ، قطعنا خلالها ثلاثين كيلومتراً، نتحدّى شِعاباً حلزونيّة، قرية أصغر من (المسارحة) وأقلّ حضارة في بنائها وأرضها الترابيّة، وهكذا في كلّ مكان نبتعد فيه عن المدينة، ينحسر رداء الحضارة، وتتكشف عورة الحياة البدائية، تقبع الخوبة هادئة صامتة مستكينة عند أقدام جبال اليمن المنتصبة وراءها، وهي آخر مدينة جنوباً تحت السلطة السعوديّة.

علينا الآن أنْ نستقلّ سيّارة جيب طلب خاصّ بنا إلى (قُوّا) التي تبعد خمسة كيلو مترات، عدت مع زميلي في سيارة الجيب إلى وادي العذاب الذي جئنا منه، ثم انحرفت السيارة يميناً، تصعد شِعاباً، توزّعت في منعرجاتها أكواخ القصب المخروطيّة وقليل من البيوت المبنيّة من الحجارة الداكنة.

قُوَّا

هذه هي (قُوّا) أخيراً، استمرت السيّارة تتقلقل وتتوقّل في الشِعاب التي حفرتها السيول عبر الأزمان، وصلنا القمة، المدرسة أمامنا، تشرف على القرية وعلى السهول الممتدة الشاسعة، ووراءها من الأعلى مرتفع صخري أجرد، المدرسة بناءان منفصلان، كلّ بناء غرفتان، خرج ثلاثة أشخاص على صوت السيّارة، عرفناهم من لباسهم، مدرسان و(الفرّاش) أي (المستخدم) أو (الآذن) عند أهل الشام، رحّبوا بنا بحرارة، كانت الشمس قد تعبت هي أيضاً كما تعبنا، فأغمدت سيوفها، وأخفت سياطها، جلسنا في ساحة المدرسة، وهي عبارة عن منبسط على رأس التلّ دون سور، نتأمّل الشمس تعوم في حمرة الغروب، هبّت من الحقول المنداحة أمامنا نسمات منعشة، لأول مرّة أنعم بجوّ مريح ومعتدل منذ أن تركنا سورية، بدأ التعارف، قدّمت نفسي، أنا فلان من حلب، وزميلي أبو عماد من دمشق، وقدّم الزميلان نفسيهما، إنّهما من أشقّائنا الفلسطينيّين، ومن الضفّة الغربيّة تحديداً، وقدّم الفرّاش نفسه، لفت نظري صغر سنّ المدرّسين، فهما في العشرين من العمر، دار الحديث ودّياً عن السفر ومشاقّه، وعن الغربة والبعد عن الأهل.

سألتهم عن ماء للشرب، فالعطش قد نال منّي بعد رحلة السندباد البرّيّ، أشار أحدهم إلى جرّة فخاريّة تستند إلى جدار المدرسة، يغطّيها كوب زجاجيّ، ملأت الكوب، ماء بنيّ بلون التراب!، أخذت أحدق في الماء، انتبه الفرّاش واسمه (منصور) وقال: "هذا ماؤنا يا أستاذ، نأخذه من الوادي، فكلّما كانت السيول قوّية ازداد تعكّر الماء، وسوف تتعوّدون عليه بعد أيّام، تردّدت ولم أشرب، سألتهم عن (دكان) بقاليّة في القرية، فأشاروا إلى واحدة على بعد مئة متر.

علمت فيما بعد أن في القرية بقاليّتين، تقدّمان ما يحتاج إليه سكّان القرية من الأرزّ والسكّر وغيرهما، وفي كلّ بقاليّة برّاد (ثلّاجة) يعمل على الكاز، يُشعَل تحته فتيل الكاز، فيقوم بالتبريد، لكنّني لا أعرف آليّة (ميكانيكيّة) عمله على فتيل الكاز.

وقفتُ أمام البائعة، امرأة يافعة لم تبلغ العشرين، ترضع ابنها، شعرت بالحرج، ثم طلبت علبة كولا، سحبت اليافعة الحلمة من فم الوليد الذي كان يتشبّث بالثدي، وينعم بطراوته، وربّما يتلذّذ بشيء آخر على رأي أبي التحليل النفسيّ (فرويد)، وأخذ يصيح محتجّاً غاضباً، تركت اليافعة الثدي يخفق مشرئبّاً حرّاً من كل قيد، كان أسمر صغيراً بحجم كرة المضرب، تلمع حلمته الورديّة من أثر الحليب، ازددتُ حرجاً وتردّداً، ودارت في رأسي أسئلة كثيرة، واليافعة تتصرف بعفويّة وثقة، فأخذتُ (الكولا) وعدت إلى ساحة المدرسة دون أن أتجرّأ على السؤال عن حقيقة ما رأيت.

جفّ فمي، فقد زادتني الكولا عطشاً، نظرت إلى الجرّة مرّات ومرّات، وجوفي يتحرّق إلى جرعة ماء، ملأت الكوب من الجرة، ودون أن أنظر إليه، سكبت الماء في حلقي دفعة واحدة، أحسست بطعم الطين يطلي فمي، فقد التصق لساني بحلقي، فالتفتُّ أبصق لأزيل الطبقة الطينيّة عن لساني.

توافد أهل القرية للتعرّف علينا، نحن المدرّسين الجدد والترحيب بنا، يتحدّثون فلا أفهم من أحاديثهم إلّا بعض الكلمات، وأخمّن بعضها الآخر من سياق الكلام، قال لي أحدهم: "ابني (باسل فنّان)، وهو طالب في المدرسة عندكم"، فظننت أن اسم ابنه باسل، ويجيد فنّاً من الفنون الجميلة، قلت له: "ما شاء الله، وما نوع الفنّ الذي يجيده؟"، ردّ عليّ: "لا لا ابني فنّان"، أجبته متظاهراً بفهم ما قال: "الله يبارك فيه ويحفظه من كل شرّ". ثمّ علمت أنّ كلمة (فنّان) تعني بلهجتهم المجتهد أو المتفوّق أو الجيّد، وعكسها كلمة (جيفة) أيْ البَشِع أو السيّئ، وكلمة (باسل) تعني كثيراً، وهكذا بدأنا نعاني من مشكلة اللهجة المحليّة، قال أحدهم غداً أمْ خميس يوم أمْ وعد- ويقصد يوم السوق، وربما سُمّي بذلك لأنّهم يتواعدون فيه، وبإمكانكم أن تشتروا كلّ ما يلزمكم من أمّ وعد، فظننت أنه اسم مركب إضافي من كلمة (أم) ومضاف إليه (وعد)، ثم عرفت أنهم يستعملون (أمْ) بدل (ألْ) التعريف، فيقولون أمْ كتاب ..أمْ بيت أي الكتاب .. البيت، ثم تذكّرت أنها لهجة عربيّة قديمة، وهي لهجة أهل الجنوب (أهل اليمن)، فقد جاء رجل إلى النبيّ (ص) وسأله: "هل من أمبرِّ أمصيامُ في أمسفر؟"، فأجاب الرسول (ص) بلهجة السائل: "ليس من أمبرِّ أمصيامُ في أمسفر"، أي ليس من البرِّ الصيامُ في السفر. وكثيراً ما وقعنا بعد ذلك في مآزق نتيجة لاختلاف مدلول الكلمات، فمرّة قلت لسقّاء المدرسة: "(يا زلمة) لماذا تأخّرت؟"

أي (يارجل) بلهجتنا السوريّة، فإذا به ينتفض ويغضب غضبة مضريّة ، كادت أن تهتك حجاب الشمس، ويقفز ويقول لي: "أنا زلمة ؟! عيب يا أستاذ، هذا الكلام لا يقوله أمثالك!"، إلى أن جاء الفرّاش منصور، وفهم منّي ما أقصد وأنهى سوء التفاهم، ثم قال "لي: يا أستاذ هذه كلمة (جيفة) عندنا، تعني عضواً من أعضاء الحمار"، و(الجيفة) كما ذكرتُ تعني عندهم البشعة أو السيّئة، والمصيبة أن هذه الكلمة تنزلق على لساني لغواً بشكل عفويّ، ومن غير قصد، ومرّة وقعت في مشكلة مماثلة في الصفّ، وهي كلمة (كفاح)، فكانت كسابقتها في المعنى، ويلفظونها (كَفْحَة) فكلّما قرأت هذه الكلمة في قصيدة مقرّرة في المنهاج، ينخرط الطلّاب في الضحك، وكذلك كلمة (حُرّ أو حُرّة).

ولكنْ بعد ما يقارب الشهر بدأنا نفهم لهجتهم، بعد أن نرجعها إلى مصدرها العربيّ الخالص، فمثلا يقولون: راح (ثَمَّةَ)، وثَمَّةَ لفظ عربي أصيل بمعنى (هناك)، وفلان مصاب (بالزُّكْمَة) والزُّكْمَة كأختها في المصدرية مرض (الزكام).

ولكن هناك كلمات كثيرة لم نجد لها أصلاً أو جذراً في معاجم اللغة، مثل كلمة (حُكْنَة)- الكاف تلفظ كالجيم في لهجة إخوتنا المصريّين- وهي طعامهم الأساسيّ بدل الخبز، فالذرة البيضاء التي تزرع بكثرة في هذه المناطق لتوفر المياه والحرارة يجرشونها بين حجرين أسودين، لأنّ الحجر الأسود كما هو معلوم بازلتيٌ قاسٍ جداً، ثمّ تعجن الذرة المجروشة، وتكوّر كخبز (الهمبرغر)، وتخبز على شكلها الكرويّ في التنور، وكثيراً ما يحس الآكل بذرات الحجر الأسود، تنسحق بين أضراسه، فمن أين جاءت كلمة (حكنة)؟!، لا أحد يعلم، فربّما جاءت من حقْنِ الذرة بالماء، أيْ إضافة الماء إلى الذرة. وبالمقابل فإن أهل القرية لا يفهمون لهجتنا، فكانوا يقولون في البداية: "يا أستاذ، نحن لا نفهم (هَرْجْكُم) أيْ كلامكم"، حتى تعوّدنا على لهجتهم، وبدأنا نخاطبهم بها قدر الإمكان.

تناولنا العشاء ضيوفاً على المدرّسين، وأحضر أهل القرية قعّادتين للنوم، أخبرنا زميلانا أننا سنقيم جميعاً في المدرسة حتى يبدأ العام الدراسي بعد انتهاء موسم الحج، أيْ بعد ما يقرب من شهر، أو نجد بيتين للإيجار في القرية، تمدّدنا في أسرتنا في فِناء المدرسة، فالنوم داخل الغرف مستحيل لشدّة الحرّ، بدأ مصباح الكاز المسلول المعلّق على جدار المدرسة يلهث إعياء، ثم ساد الصمت، وتراكم الظلام فوقنا جلاميد صمّاء، نحن الآن في مقبرة الأناضول، أشرس بقاع الدنيا بحيوانها وزواحفها وأمراضها، استيقظ في داخلي الخوف والترقُّب، حولنا السهول والوديان اليقظة التي لا ينام فيها صراع الكائنات مستميتة على تنازع البقاء.

عدت إلى هول التجربة الأولى التي امتحنتْ ضَعفي الإنسانيّ عند ركوبي الطائرة أوّل مرّة، وعادت لحظة القِصاص من جديد، إنني الآن بين يدي جبّار السماوات والأرض، مكشوفاً عاجزاً أمام أصغر المخلوقات، فما أضعف الإنسان الغرور أمام أهوال الدنيا وإرادة السماء، لدغة من عقرب أسود صغير تسوّي أعتى جبّار في العالم بأتفة جيفة على الأرض، فما بالك بضبع جائعة تائهة أو كوبرا تتهادى من جارتنا اليمن رافعة رأسها، تتلفت لترحّب بنا؟!، عدت إلى التوبة وطلب الغفران، الجميع حولي يهنؤون بنوم سعيد، انتصبت أذناي (رادارا) تلتقطان أدقّ نأمة، ليس إلّا نباح الكلاب من بعيد، وصرير الجنادب الآمنة في مخابئها، وصوت البعوض المغرم بدمائنا الزكيّة، تقترب البعوضة من الأذن، فيعلو أزيزها، ثم تبتعد كطائرة تُغِيْر أو تتفحّص أهداف العدوّ، إنّه البعوض سيّد الظلام، سيّد المعركة، كنت أحرّك يديّ لأطرد هذا اللئيم ولساني يهجوه ببيت المتنبّي :

وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ طَلَبَ الطعنَ وحدَهَ والنزالا

فأُبَدِّلُ ببعض الكلمات كلمات أخرى وأقول :

وإذا ما خلا البعوضُ بليلٍ مارسَ الطعنَ غادراً خَتّالا

أحضرت معي من حلب (كِلّة) ناموسية استعدادا لمواجهة هذا العدوّ الغدار، ولكنْ كيف أهتدي إليها داخل الحقائب، وكيف أنصبها وسط تلال الظلام، انصرافُ تفكيري إلى البعوض ومواجهته خفَّفَ من هواجسي ومخاوفي، فاستطاع

طائف النوم- بعد عناء يوم شاق- أن يتسلّل ويبسط أجنحته الناعمة، فاستجابت له جوارحي المتعبة بسرعة، لكنّ الأحلام التي راودتني طوال الليل لم تكن سعيدة، كانت امتداداً لهواجس القلق والخيالات التي لم تنم في عقلي الباطنيّ.

فتحنا عيوننا على بهاء الصباح الباهر، ومن ورائه الشمس اللعوب، توقظ الكائنات، وتتوعّدها بيوم جديد مستعر، وتنسج من زاهي خيوطها وشاحا ذهبيّا، تمدّه على خضرة السهول والأشجار، لم أكن أتوّقع هذا الإشراق السنِيّ، كلّ شيء متألّق بسّام، لكنّ طعنات الغدر من البعوض كانت واضحة على وجوهنا وأيدينا، فقد خَلا له الليل، وطابت له جلودنا الطريّة، فأعمل فيها أسلحته غرساً وفتكاً.

بعد الإفطار توجّهنا جميعا، نحن المدرسين ومنصور فرّاش المدرسة إلى سوق (الخوبة) أو (أمْ خوبة) بحسب لهجتهم، التي تبعد خمسة كيلومترات عن قريتنا، كنّا نسير بين حقول الذرة البيضاء، وأحيانا على أرض صخريّة، تناثرت في جنباتها الأشجار البريّة، ومن بعيد تطلّ جبال اليمن الانكساريّة، وكأنها تحتضن الأرض والفضاء، كان الطقس جميلاً والطريق ممتعاً بالنسبة إلى من أمضى عمره داخل حارات ضيّقة حجريّة أرضاً وبناء، أو في أبنية حديثة مُتراكِب بعضها فوق بعض كعلب الكرتون، وكأنّ انفساح الأرض إلى مداها الواسع شرح صدورنا، وأطلق ألسنتنا بالحديث عن القرية وسكّانها، وزاد ذلك تعارفنا، وكأنّ الغربة قد كسرت في نفوسنا الحواجز، فأخذ كلّ منّا يبوح بأشجانه ومكنونات نفسه.

قصر الأمير

قريباً من الساعة كنّا على أبواب الخوبة، اقترح علينا الفرّاش منصور أن نزور أميرها أوّلاً، رحّبنا بالفكرة، لأنّنا سنرى لأوّل مرّة أميراً حقيقيّاً داخل قصره ، مسوّراً بالجند والحرس، كان لكلّ ناحية أو مركز للقرى أمير تعيّنه الحكومة، قصدنا دار الإمارة، بناء عادي كبقيّة الأبنية من القرميد الطينيّ ومن طابق واحد، دخلنا بابه الكبير، فامتدت أمامنا ساحة مكشوفة، توزّعت على أطرافها غرف مغلقة الأبواب، في صدر الساحة جُرْمٌ بشريّ ضَخْم، يفترش الأرض، ويتكئ على عدّة وسائد، وعلى الطرفين أمامه وبين يديه يجلس ندماؤه وأصحاب الحاجات، لا شيء هنا يدل على الأبّهة أو العظمة، فكل ما في المكان هو بُسُط ووسائد، ذكّرني مجلسه بمجلس المختار أو شيخ الضيعة في قرانا السوريّة، والغرف مبنيّة من القرميد أيضا ومطليّة بالملاط دون دهان، حتّى لباس الأمير دشداشة فقط وشملة بيضاء تركها حرّة على كتفيه، وبدا حاسر الرأس.

رأى الأمير منصوراً، ونحن نحيط به بلباسنا المميّز عنهم، فاعتدل في جلسته ليرحّب بنا، ويبدو أن نهوضه بجسمه الرَّهْل يحتاج إلى وقت، صحيح أن لقرية قُوَّا عُمدتها أو مختارها أو شيخها من أصل يمنيّ، لكنّ منصوراً برشاقته- وقد وطئ عتبة الثلاثين من عمره منذ سنوات- ودماثته ومعرفته القراءة والكتابة اللتين أتقنهما عند شيخ الكتّاب في القرية قد رشّحته لأن يكون رسول القرية والناطق الرسميّ باسمها، إضافة إلى أنّه فرّاش المدرسة- المؤسسة الحكوميّة الوحيدة الجديدة في القرية- وهو المطوّع (إمام المسجد)، وربما ندبته الحكومة سرّاً لهذه المهامّ لأنّه من أصل سعوديّ، فالصراع هنا عِرقي، إنْ صح التعبير بين يمنيّ وسعوديّ، أصحاب البلد الأصليون يَعدّون الوجود السعوديّ في بلادهم احتلالاً، فالمناطق الثلاث (أبها ونجران وجيزان) في رأيهم مناطق يمنيّة محتلّة، ويحلمون باليوم الذي يتحرّرون فيه من هذا الاحتلال الذي بدأ منذ ثلاثينيّات القرن الماضي، عندما قام الملك عبد العزيز آل سعود بحروبه، ومدّ أطراف دولته إلى حدود اليمن الحاليّة، وتسعى الحكومة إلى توطين السعوديّين في هذه المناطق حتّى تتعادل الكتلة الديموغرافيّة، وأميرها هذا من أصل سعوديّ كما علمنا، وكما يبدو من لون بَشَرَته الأقلّ سُمْرَة من لون أبناء البلد الأصليّين، لذلك أكثر من الترحيب بنا وبمنصور، وأسرع النادل يقدم لنا القهوة، فوجئت بأنّها ليست كما عهدناها في بلدنا سوريا، فقهوتهم سائلة كالماء، صفراء بلون عصير الأناناس، تعبق بطعم الهال والمنكّهات الهنديّة، لا شكّ أنّ لهم طريقة خاصّة في تحضيرها، تختلف عن طريقة تحضير قهوتنا التي يقال لها (قهوة تركيّة).

كانت جلستي على البساط جانب الأمير، كان في الخمسين من عمره، كل ما فيه ضَخْم، حتّى أنفه الذي نبتتْ على قمته غابة من الشعر الأسود، لأوّل مرّة أرى أنفاً كمزرعة القصب المحروق، مدّ رجليه الغليظتين، فبدت الشقوق في عقبيهما، وبدا سطح قدميه السفليّ كالجلد المقشور بخلاف لون جسمه الداكن، فذكرني ببطن الضفدع، كان متواضعاً، تبدو عليه أمارات الطيبة، دار الحديث وديّا، كان أكثره الترحيب بنا، وبدا من حديث الأمير أنه لم يتم قراءة جزء (عمَ)، بعد ربع ساعة غادرنا بلاط هذا الأمير، قال لنا منصور: "أتدرون لماذا يبدو الانبساط على الأمير؟ إن عرسه بعد أيّام"، قلت له: "حتّى الآن لم يتزوج؟!" ضحك وأضاف: "أولاده في مثل سنّي، لكنْ ليس للأمير تسلية إلّا الزواج، وهو يفضّل الفتيات اليافعات.

سوق الخوبة

عدنا إلى سوق (الخوبة)، فاستقبلتنا الحمير التي تتهاوش على مداخل السوق، والذباب الذي يتطاير أسراباً فوق الأقذار، السوق دكاكين عشوائيّة، أكثرها من الخشب والقصب وأغصان الأشجار، تشبة الدكاكين التي نراها في التلفاز في الأسواق الشعبيّة في قلب القارة السمراء، وقليل من هذه الدكاكين مبنيّ من القرميد الطينيّ، وجميعها موزّع على غير نظام، وكان هناك شبه تخصّص، فمجموعة من الدكاكين لبيع الفواكه والخضار، ومجموعة ثانية للأدوات المنزليّة، وثالثة للثياب، ورابعة للحبوب والطحين والبقوليّات، وخامسة وسادسة.. فهنا يتجاور التليد والطريف.. الموروث والحضاريّ، ترى من يبيع الماء في جرار ملئت من سيول الوادي، وبجانبه بائع المياه المعدنيّة المثلّجة المستوردة من أقاصي الأرض، ومن يبيع الخناجر التقليديّة المزخرفة والمرصّعة بالأحجار الكريمة وغير الكريمة التي يتزيّن بها اليمنيّون، وبحذائه بائع المسجّلات وأشرطة (الكاسيت)، وترى مسحوق التبغ الذي يوضع في الفم بين اللِّثَة والشِّدق، ينافسه قريبا منه أحدث أنواع الدخان الأمريكيّ والأوربيّ، فالجميع تقريبا يدخّنون، وبخاصّة المراهقون، ودخانهم المفضّل ال (روثمان)، كما لاحظت انتشار هذا النوع في جيزان.

الزِّي اليمنيّ هو السائد، حوكة- وهي كما ذكرتُ من قبل مثل المئزر تستر الرجل من السُّرة حتّى الركبتين- وقميص قطنيّ أبيض بنصف أكمام، ويلفّون الشملة على رؤوسهم أشكالاً، أو يتركونها معلّقة على الأكتاف خصوصاً أثناء العمل، والخناجر تتراقص على خصورهم الضامرة، وقليل منهم يلبسون الدشداشة، وأظنّ أنّ هؤلاء من أصل سعوديّ كما يبدو من ألوانهم الأقلّ سُمرة، والجميع هنا وفي جيزان وحتّى في جميع أنحاء المملكة ينتعلون (الزّنّوبا)، وهو حذاء من صنع الصين، ثمنه زهيدٌ أربعُ ريالات، وصنعه بسيط، أرضية من الإسفنج وشريطان من البلاستيك، يمتدّان من بين إبهام القدم وسبابتها إلى طرفي الأخمص، يستعمله وبخاصّة النساء في الأقطار العربيّة في البيوت بدل الشبشب .

هنا في الخوبة يختلط الرجال بالنساء بخلاف جيزان ربّما لأنّ أكثرهم من أصل يمنيّ، ومن النساء من يعملنْ بالبيع والشراء، والجميع يتميّزون بالنحافة المفرطة، وبخاصة في الأرجل المعروقة كأرجل المَعز، وقلّما نصادف أحداً مُكتنز الجسم والعضلات، شاهدت مرّة واحدة فقط امرأة بدينة، يبدو أنها مصابة بقصور في إفراز الغدّة الدرقيّة، فالجميع هنا رجالاً ونساءً ليسوا بحاجة إلى نظام (الريجيم) الحِمْيَة، فوزن الواحد منهم لا يتجاوز خمسين كيلو غراماً، كما أن النساء لَسْنَ بحاجة إلى عمليات (شفط) الأرداف أو تصغير الأثداء أو نفخ الخدود والشفاه، ولا أظنّ أنَّ واحدة منهنَّ قد سمعت بهذه العمليّات أو المصطلحات الحضارية، فقد منَّت عليهنَّ الطبيعة، وجعلت الواحدة منهنَّ مثل السَّفُود (سيخ الشواء)، وإذا كنّا حضاريّين فمثل عارضات الأزياء.

زينة الرجل علاوة على (الجنبيّةِ) أيْ (الخنجرِ في وسطه) إكليلٌ من أغصان شجر طيّب الرائحة، تُضفر الأغصان، أو تُلف حول بعضها بعضاً دَورَين أو ثلاثة أدوار، ويضعها الشباب زينةً على رؤوسهم، خصوصا وقت الفسحة أو التجوال مساء رمزاً للفتوّة ولجلب انتباه الفتيات، شبهَ ذلك الإكليل الذي يزيّن رأس عبقري الطليان (دانتي أليجيري) .

رآني منصور مرّة أديم النظر إلى (جنبيّة) أحد أبناء القرية، يجلس قربي، أتأمّل زخرفتها والأحجار الملوّنة التي تزيّن مقبضها وغمدها، فمال عليّ منصور، وهمس في أذني: "إيّاك أن تمدّ يدك إلى (الجنبيّة) أو تحاول إخراجها من غمدها، (الجنبيّة) تُعَدُّ عندنا شرف الرجل، وقد يحتدّ الرجل ويلجأ إلى قتل من يمدّ يده (إلى جنبيّتِهِ) شرفِهِ"، فكنت أحاذر من أن تلمس يدي إحداها لئلا تكون النهاية ولأبسط سبب.

قال لنا منصور: أكثر رواد السوق يأتون من اليمن، فلا يوجد حدود واضحة أو محدّدة بين البلدين، كنّا نعرف المدرّسين القادمين من القرى الأخرى من لباسهم، فيسلم بعضنا على بعض دون معرفة، اشترينا ما يلزمنا من أسرّة حديديّة وفرُش وأغطية وأدوات منزليّة ومصباح وموقد نار يعملان بالكاز وكيس من الدقيق، لأن علينا صنع الخبز بأيدينا، كما اشترينا معلبات الخضار كالباميا والفاصولياء وكل ما نحتاجه، ويذكّرنا به زميلانا الفلسطينيّان، أي أثّثنا بيتاً بساعة واحدة، وللإنصاف أقول التسامح في الوزن ظاهرة لافتة للنظر، فكلّ الباعة يوْفُون الكيل، بل يرجّحون كفّة

الميزان لصالح المشتري، فيؤكّدون على سموّ الآية الكريمة (وأوفوا الكيل إذا كلتم، وزنوا بالقسطاس المستقيم)، وهذا ما لم أره في أيّ من البلدان العربية أوالأجنبية التي زرتها، في هذا السوق الشبه بدائيّ كانوا يسمّون النقود عدّة تسميات بدائيّة مثل (طَقْطَق) أو (زَلَط) إضافة إلى الاسم الأساسيّ الريالات.

استوقفنا منصور وقال: انظروا إلى هذا البائع، كان رجلاً بزِيّ يمنيّ (الحوكة والقميص القطني والزنوبة والخنجر مغروس في وسطه)، وقد جدل شعره الأسود الجَعْد ضفائر طويلة كاليمنيّين، يجلس القرفصاء، وأمامه صندوق زجاجيّ، داخله حُلِيٌ ذهبيّة، تابع منصور: إنه من يهود (اليمن)، الذين لا يتاجرون إلّا بالذهب، تفرسّنا في هيكله الضامر ولونه الداكن، وهو يمتصّ التبغ في فمه شأن كلّ اليمنيّين، فهو لا يختلف عنهم في شيء، ويقبع ساهما شارد اللبّ، وكأنّه في حلم.

عدنا إلى قريتنا- بدأنا نسمّيها قريتنا- بسيّارة أجرة، أنزلنا ما اشتريناه في المدرسة، كانت الشمس تنتظرنا وكأنّها اشتاقت إلى أجسادنا البيضاء وجلودنا الناعمة، جاء منصور بعد ساعة وقال: هناك بيت من القرميد الطينيّ وآخر من القصب، فاختاروا ما تشاؤون، اختار زميلانا كوخ القصب، فهما من أبناء الريف في الضفة الغربية المحتلة، ويعلْمان أنّ كوخ القصب يمنع الحرارة، واخترنا أنا وزميلي الدمشقيّ أبو عماد بيت القرميد، فجدرانه الصقيلة المطليّة بالدهان وسقفه الخشبيّ واضحة للعيان، نستطيع أن نرى النملة على الجدار، وهي تسعى في رحلتها اليوميّة صاعدة هابطة، كان بيتنا لا يبعد عن المدرسة أكثر من عشرين متراً، وهو لأحد رجال الأمن، يعمل في شمال المملكة، كان رجلاً طيّباً سَمْحاً كريم الأخلاق، وقد رفض أن يأخذ إيجاراً مقابل سكننا في بيته طوال العام.

انتصف النهار، وبدأت الشمس تزفر حقداً وغضباً، ونحن داخل غرفة قرميديّة كمُعتقَل من الصفيح، بدأنا بصنع الخبز مستفيدين من خبرة ونصائح زميلينا، عجنّا الطحين ووضعنا الخميرة وانتظرنا حتّى يختمر، وما أسرع ما عملتْ فيه الخمائر والحرارة، ثم رقّقْنا الأرغفة، دحرجنا فوقها كالمِدحلة قنّينة زجاجيّة، فجعلناها أقراصاً، وتركناها فترة حسب التعليمات ليرتاح العجين، ثم بدأنا نخبز كلّ رغيف بمفرده في مقلاة (تيفال) حتّى لا يلتصق العجين بالمقلاة إذا كانت من الألمنيوم، وقلّبناه عدّة مرّات، ونحن ننتظر ولادة أوّل رغيف بشغف كمن ينتظر مولوده الأوّل، فجاء أَشْأَمَ أَشْوَهَ، طبقة رقيقة محروقة من الوجهين، وفي الداخل قرص من العجين لم تصل إليه النار، ألقيتُ بالرغيف إلى كلب عسكر أمام بيتنا طوال العام، فشمّه ثم أسرع هارباً، جرّبنا الرغيف الثاني والثالث دون جدوى، فالأصل واحد والنسل واحد، ومّما زاد من ضيقنا وحَنَقنا أننا نُشوى بين نارين، ونتصبّب عرقاً، نار الموقد أمامنا والنار التي تنفثها الجدران القرميديّة .

أكلنا الفرّوج مع الرزّ دون خبز، وللإنصاف أقول: إننا بعد شهر وحتّى آخر العام أصبحنا ننتج أرغفة شهيّة، تنافس إنتاج أحدث المخابز الآليّة، فالإبداع في كلّ شيء يحتاج إلى مران وتجربة، كنّا نأكل خارج الغرفة في ظلّ جدارها هرباً من الهجير داخلها، لعل نسمة تائهة تمرّ، فتبرّد أنفاسَنا الحارّة، ألقينا بالعظام إلى الكلب الذي كما ذكرتُ لازم غرفتنا منذ هذا اليوم وحتى نهاية العام، فهو حارسنا الأمين الذي يطارد الزواحف والحشرات، لكنّ طائراً كان أسرع من وثبة الكلب، انقض من السماء بحركة خاطفة، والتقط بمخالبه الرشيقة بعض العظام بسرعة لا تكاد تُلمح، وعاد يحلّق في الفضاء، كان ذلك على بعد أمتار منّا، فرُحنا ننظر إلى الطائر مبهوتين، وكان الكلب أكثر منّا بَهْتاً ومفاجأة، لا شكّ أنّ الطائر كان يراقبنا بعينيه الثاقبتين وهو على علوّ كبير، حمدنا الله على أنّه لم ينقضّ على طعامنا، ونحن نأكل، فربّما لحقَنا منه شيء من الأذى، لم يستغرب أبناء القرية ذلك عندما قصصْنا عليهم ما جرى، قالوا لنا: هذا الطائر يسمّى (الحِذْيانة)، وهو ينتشر كثيراً عندنا، وهو لا يؤذي الإنسان، ولكنْ عليكم الحذر منه وعدم الأكل خارج الغرفة- إذاً علينا الحذر من الحيوانات برّاً.. بحراً.. جوّاً..- ربّما كان هذا الطائر هو (الحِدَأة)، وهو طائر من الجوارح من فصيلة الصقور، كانت هذه أوّل مواجهة لنا مع حيوانات هذه المنطقة.

التجارة في المملكة السعوديّة حرّة، والفرّوج يُستورد مجمّداً من كلّ بلدان العالم، شأنه شأن كلّ ما تستورده المملكة حسب العرض والطلب، فكنّا نأكل الفرّوج مرّة واحدة في الأسبوع، لأنّ سوق الخوبة يقام يوم الخميس فقط، ولا يوجد

مكان آخر لبيع الفرّوج، فلا يوجد برّادات لحفظه، كما كنّا نشتري من السوق بعض الخضر والفواكه، ونأكلها يوماً أو يومين لأنها تفسد بسرعة بتأثير الحرارة، ويوم الجمعة نأكل الباذنجان والبطاطا المقليين، أما بقيّة أيّام الأسبوع فكنّا نعتمد في طعامنا على المُعلّبات اعتماداً كاملاً، فصباحاً ومساءً الجبن والزيتون مع الشاي أو الفول والحمص، والغداء الأرز مع الفاصولِيَاء أو البامِيَة وغيرها، وكلُّها معلّبة، فكنّا نشكو طوال العام من عسر الهضم.

بعد الغداء تمدّد كلّ منّا على فراشة الإسفنجي الذي يكتنز الحرارة أكثر من الجدران، وتقلّبنا كما تقول أم كلثوم على جمر النار، فمن لم يمضِ قيلولته في غرفة مثل غرفتنا لا يعرف المعنى الحقيقيّ لشكوى سيّدة الغناء العربيّ.

بعد ساعة وفي حوالي الرابعة غابت الشمس فجأة، وامتدّت سحب داكنة، لا أدري من أين جاءت، تطاردها رياح مجنونة، وأخذت تبتسم عن بروق تضيء الدنيا، تعقبها رعود تدوي في جنبات الوديان، عجيب أمر هذه الأرض!، ربع ساعة وبدأت السماء تفرغ أوعيتها دفعة واحدة، سقف البيت الخشبيّ المطليّ من الخارج بالطين المعجون من التراب والماء لم يتحمّل دفقات المطر السخيّة، والمزراب على سعته لم يستطع تصريف عطاء السماء، فأخذ الوَكْف طريقه إلى سماء الغرفة، فشرعنا نزيح الأسرّة والأمتعة إلى هنا وهناك، ونضع تحت كل حبل من الماء وعاء، ثم نفرغه خارج الغرفة، وثيابنا تلتصق بأجسادنا وتقطر ماء، أصوات كزقزقة العصافير وضحكات ناعمة، نظرتُ من النافذة الجنوبيّة المطلّة على القرية، أطفال وفتيات نواهد يتزاحمون، ويتدافعون تحت مزراب غرفتنا، كلّ واحد يريد أن ينعم بمفرده بشلّال الماء، لقد جاؤوا من بيوتهم القصبيّة للعبث والمرح والبراءة، فالتصقت ثيابهم بأجسادهم وبرزت تفاصيل الكواعب منهم، فتذكّرت لوحة المستحمّات لـ (بول سيزان) ولكنْ شتّان.

فجأة وبعد ما يقرب من ساعة انتهى الأمر، وكأنّ منادياً نادى بأقطار السموات والأرض فقال: يا سماء أَقْلِعي، ويا أرض ابلعي ماءك، ويا شمس أطلّي من جديد، فقد انتهت معجزة (نوح) (ع)، خرجنا نشرف على السهول والوديان، كلّ شيء مشرق يضاحكُ قرنَ الشمس في ولادتها الجديدة، لكنّ رطوبة خانقة تنبعث من الأرض الحارّة ، تضيق بها الصدور والنفوس. لله درّ هذه المنطقة، ما أغرب أرضها وسماءها وطقسها.

بعد أن بدأتْ الدراسة كان منصور يطلب منّا أحياناً أن نصرف الطلّاب القادمين من القرى المجاورة، قبل أن ينتهي الدوام المدرسيّ، فكان بخبرته بطقس بلاده يعرف أن المطر المدرار سيهطل بعد قليل من خلال رؤيته للغيوم السوداء التي تتسابق في صفحة السماء، قادمة من جهة الغرب مبشرّة بأمطار استوائيّة، وقلّما كانت تكذّب السماء نبوءته.

جاء زميلانا لنمضي المساء معاً، كان بصحبتهما مدرّسان فلسطينيّان ضيفان من إحدى القرى القريبة، في متعة الغروب ونحن جلوس على الأسرّة خارج الغرفة، نتساقى خمرة الحديث المعسول بتعارفنا الجديد، ونتبادل الآراء والمعلومات حول مناخ هذه المنطقة الشبه استوائية، أخبرنا منصور- الذي كان يحضر كل جلساتنا ويستمتع بحديثنا، ونستفيد من خبرته بالمنطقة، فهو ابن هذه البلاد- أنّ المطر هنا لا وقت له، تتراكض الغيوم فجأة، ثم تهدر السماء برعود قاصفة، يعقبها المطر المدرار ساعة، ثم يعود كلّ شيء كما كان.

لفت نظري أنّ كلَّ المدرّسين الفلسطينيّين شبابٌ في العشرين من أعمارهم أو تجاوزوها بقليل، بينما نحن وبقيّة المدرّسين من كلّ الأقطار العربيّة الذين صادفناهم قد تجاوزنا الثلاثين، علمْنا أثناء المسامرة أنّ الضيفين كانا فدائيّين، من أعضاء منظّمة التحرير الفلسطينيّة، وأنّ كلَّ أعضاء المنظّمة يُقبَلون للتدريس والعمل في السعوديّة فور تقديمهم الطلبات، مع فحص شكلي دون النظر إلى أعمارهم، وأحياناً دون أوراق ثبوتيّة كاملة، ودون النظر إلى سنوات الخبرة والتدريس، فيُقبَلون فور تخرّجهم من المعاهد أو الجامعات، وربّما كانت شروط القبول للفلسطينيّين صادرة من جهات خارج السعوديّة.

أما نحن ـ السوريّين وغير السوريّين ـ فنمرّ على لجنة فحص صارمة، وتُطلَب منا أوراقٌ ثبوتيّة شبه تعجيزيّة، فأنا وزميلي أبو عماد لم تُقبل منّا الشهادة الجامعيّة، لأنها صادرة عن جامعة بيروت العربيّة، فقُبلنا بشهادة التعليم الابتدائيّة،

كما يُشترَط في المدرّس السوريّ أن يكون قد مارس التدريس مدّة لا تقلّ عن ستّ سنوات، ولا تُحسَب له سنوات الخدمة العسكريّة، ولا خدمة الاحتياط في الجيش، يطلب موظفٌ مختصٌ في السفارة السعوديّة في سوريا من المدرّس الذي يرغب في التعاقد معهم، يطلب دفتر خدمة العلم (التجنيد الإجباريّ)، ويقوم بمهارة فائقة بحساب مدّة الخدمة العسكريّة ومدّة خدمة الاحتياط، ولو كان الاحتياط أكثر من مرّة، ثم يجمعها، ويحذف المجموع من خدمة المدرّس الفعليّة، لذلك ترى أكثرنا عدا الفلسطينيّين قد تجاوز الثلاثين من عمره.

كان أغلب المدرّسين الفلسطينيّين يحملون شهادة معاهد التعليم في المملكة الأردنيّة، التي تسهّل لهم الحصول على شهادة المعهد بسرعة، أيْ يدرسون سنتين بعد الحصول على الشهادة الثانويّة، وكان أغلبهم قد تخصّصوا في اللغة العربيّة، كانت تعترضني أثناء القراءة أو الكتابة مشكلة نحويّة أو صرفيّة أو أدبيّة، وكنت أحبُّ أن نتناقش أنا وزملائي حولها، على اعتبار أنّهم متخصّصون في اللغة العربيّة، فكانوا يتهرّبون من المناقشة، وقد مضى العام بأكمله، ولم أستطع مرّة واحدة أنْ أجرّهم إلى حوار أو مماحكة أو حتّى إبداء رأي، فكانوا يتهرّبون من أيّ نقاش في اللغة.

صاح أحدنا فجأة: عقرب!. وسط جلستنا بين السريرين كان عقرب يمشي بثقة، والذنابى فوق رأسه يلّوح بها بتحدٍ سافر، بسرعة خاطفة انقضّ أحد الضيوف الذي كان فيما مضى فدائيّاً، وبضربة بحذائه سوّى العقرب بالأرض، لأوّل مرّة أرى عقرباً يدبّ حيّاً، إذاً هذا هو العقرب، سرت في جسدي قشعريرة، جعلتني أصمت لحظات، كيف أفعل إذا فاجأني عقرب، وأنا وحيد، ليس بقربي أحد الفدائيّين؟!، يجب أن أُعِدَّ نفسي لتلك المواجهة، لم تتأخر المواجهة إلّا يوماً أو يومين، أدخلت رجلي لألبس البنطال، فلمحته متربّعاً في الوسط على مفرق الكمين (السرج) مشرعاً حُمَتَة الصفراء، ينتظر أن ينال منّي عضواً طرياً، ليفرغ فيه حقده وأذاه، وليؤكّد قول شاعر المهجر الإنسانيّ إيليّا أبو ماضي:

يأبى فؤادي أنْ يَميلَ إلى الأذى حبُّ الأذِيَّةِ من طِباعِ العقربِ

لا أستطيع أن أحدّد السرعة التي انتزعتُ فيها رجلي من البنطال، وألقيته على الأرض، وأظنّها كانت تقاس بسرعة الضوء، ورحتُ أطأ البنطال وأدوسه بعنف بكلتا رجليّ.

كثيراً ما رأينا في هذه الأرضِ الأسطورة مقبرةِ الأناضول حشرات لم نألفها أو لم نر مثلها، لكنّ العقرب كان أخطرها، والإنسان بطبعه يتعود مع الأيّام على أقسى الظروف والمواقف، فقد تعوّدنا على قتل العقارب، فبعد شهر أو أكثر قليلاً عندما نكون على سريرينا خارج البيت، يقول لي (أبو عماد): عقرب يسير في اتجاهك تحت السرير، وأنا مستلق، ودون أنْ أهتزّ أحمل حذائي وأنتظره من الجانب الآخر حتى يهلّ بطلعته البهيّة، وبضربة هيّنة ليّنة تتفكك أجزاؤه، ويصبح وجبة دسمة للنمل والحشرات، لكنّني لا أنساها، كانت ليلة فاسقة في أواخر أيّار، فارت الأرض حرارة، وضجّت العقارب في جحورها، فخرجت هاربة من أتون الأرض، تسعى في كلّ اتّجاه، كنت كيفما التفتّ أرى عقرباً يدبّ نشيطاً، رافعاً راية التحدّي، رحت أضربها يميناً ويساراً، أحسسْتُ في تلك الليلة أنّني أتصرّف بغير اتّزان، وربما كنتُ أصرخ مع كلّ ضربة.

وهناك حشرة أو حيوان صغير يشبه العقرب، ويسمّونه (بُشْبُشَان) وأظنه (الشِبِتّ) كما يقولون له في حلب، لكن شكله أقرب إلى شكل العنكبوت بأرجله الطويلة وظهره المحدّب كالفنجان شكلاً وحجماً، والمخيف في هذا الحيوان أنه سريع الجري وتسلّق الجدران، فما من مرّة تبعه أحدنا، واستطاع أن يقتله، تراه يسير أمامنا بحرّية وجرأة، فهو واثق من سرعته وقدرته على الفرار، وقد طمأننا سكان القرية بأنّه حيوان غير مؤذٍ ، فلا يقرص، لكنّه بالنسبة إلى القادمين من المدن المشيّدة من الإسمنت المسلّح يدعو إلى القلق، وربما إلى الخوف.

ودعنا الضيوف، ونصب كلّ منا كِلّتَه- لتكون درعنا أمام البعوض العدو الحقير الذي يدمي مقلة الأسد- واستلقى على سريره، رحت استمتع بطنين أسرابه، أهزأ به وأشمت، وهو يحوم حول الكِلّة، يشم رائحة جلودنا الشهيّة، ويعجز عن اختراق حصوننا المنيعة، فيرتد مهزوماً مدحوراً.

نظرت إلى السماء في هذا الليل الدامس، يا لروعة هذه اللوحة الربانيّة!!، ما هذه اللآلئ الزاهرة التي تشِعّ في القُبّة العظيمة اللامتناهية!!، لماذا لم أر هذه الآية من قبل؟!، سرحت عيناي، تشربان بريق النجوم الناصع، وهو يتلألأ في أديم الظلمة الساجيَة، عجباً كيف استطاع ذلك الأعمى حكيم المعرّة أن يرى ببصيرته النافذة هذا الجمان المنثور، وهو يزيّن صدر السماء كصدر زنجيّته السوداء:

ليلتي هذهِ عروسٌ مِنَ الزَّنـــــــــــجِ عليها قلائدٌ مِنْ جُمانِ

لماذا لم أنظر إلى السماء طوال هذا العمر!؟، لقد تعوّدنا في مدننا الصاخبة المكتظّة أن ننظر إلى الأرض.. إلى الأسفل.. إلى الدون.. ولم نجرّب مرّة أن نشرئبّ برؤوسنا أو بأبصارنا إلى الأعلى.. إلى القمم.. إلى الله.. تبًّا لك أيّتها المدَنيّة الزائفة، لقد حرمْتِنا مباهج الكون ومعجزات السماء، لقد صدق علماء الاجتماع عندما قالوا: أبناء المدن والبرجوازيون ينظرون إلى الأسفل.. إلى الأرض، والفلاحون أبناء الريف ينظرون إلى الأعلى.. إلى السماء.

بقيت طوال العام أنتظر كلّ يوم هذا الزائر المجهول، أنتظر الليل الصامت، لأمتطي مركب الخيال، وأسيح في أطراف السماء، أتنقّل من نجم إلى آخر، أفاجئ الشهب من لحظة اشتعالها، وحتّى تلاشيها في جوانب الكون السحيقة، أرى النجوم مجتمعة ومتفرّقة. شرحتْ لنا الكتب المدرسيّة كثيراً عن نجم القطب والدبّ الأكبر والدبّ الأصغر وغيرها من النجوم والكواكب.. كنا نراها بعين الخيال دون أن نرفع رؤوسنا ونراها جليّة في جلباب الليل، والآن أراها أمامي واضحة متلامعة خِفْيَةً، كالرسائل الخاطفة من عيون العاشقين، لقد اكتشفت متعة جديدة من متع إبداع الخالق التي لا تنتهي، اكتشفت السماء معجزة المعجزات.

كان زميلي (أبو عماد) بارعاً في سرد الأحاديث، يجعل من أتفه موقف أو أصغر حادثة قصّة مشوّقة، يسردها بمهارة، يُطيل فيها ويُسهب، ويجْعَلُكَ تنتظر النهاية التي ربما تكون أقلّ من عاديّة، كنت سعيداً بموهبته في القصّ، فأصغي إليه مستمتعاً ببراعته في السرد والتشويق، وأنا أحدّق في القُبّة الخالدة، وألاحق الشهب المتهاوية في أطراف الكون الفسيح، فيبدّد حديثه في نفسي الوحشة والملل الثقيل في هذه الليالي الطويلة، لقد صدقتْ عندي مقولةُ من يتّهم أبناء دمشق بأنّهم بارعون في القصّ والحديث وصناعة الكلام وزخرفته، وأنّ لكلّ منهم لساناً زَرِباً، يمتلك القدرة على الإقناع والإمتاع.

نمتُ ليلتي الثانية في قوا على أحاديث (أبو عماد)، كما ينام الطفل على قصص جدّته، رأيت أحلاماً سعيدة، رأيت زوجتي، وقد ولدتْ بنتاً بارعة الحسن، حدّقت في وجهها لأرى ملامحها، مددْتُ يدي لألمسها، فتحوّلت إلى فراشة ثم إلى رفّ من الفراشات، طارت بعيداً وغابت في الضياء، بقيتُ حتّى نهاية العام أرى هذا الحلم بشكل أو بآخر، لكنْ من دون أن أمسكها لأضمّها إلى صدري ودون أن أحدّد ملامحها، إلى أن وُلِدت، وأرسلت لي زوجتي صورة لها، بقيتْ إلى جانبي حتّى عدتُ إلى حلب.

الوَغْرَة

استيقظتُ صباح اليوم الثاني في قرية قُوّا الذي لم يكن أقلّ سحراً من سابقه، فقد غسلتْ الأمطار الأرض والخضرة وقصب البيوت، فبدت أزهى وأنضر، اليوم هو الجمعة، بعد الإفطار توجهنا جميعاً إلى الوادي الذي تمرّ فيه مياه الأمطار المنحدرة من جبال اليمن لنغتسل بمياهه، على بُعد ما يقرب من خمس مئة متر جنوب غرب القرية أرض رملية منبسطة في واد، تُسوّره من الطرفين أشجار برِّية عشوائيّة، لا ترتفع أكثر من مترين، في الأرض حفر دائريّة، قطر الواحدة يقرب من مترين، وهي مليئة بالمياه الحارة، تركها من استحم قبلنا، أخبرونا أنّها مياه كبريتيّة، تنبع من الأرض، حرارتها شديدة، لذلك على كلّ منا أن يحفِر حفرة، فسرعان ما تمتلئ بالمياه الكبريتية الساخنة جداً النابعة من الأرض، ويرسب الرمل، ويَفتح لها رافداً صغيراً من مياه الوادي المنسابة من مياه الأمطار حتّى تعتدل حرارتها، ثم يجلس على حافة الحفرة، ويبدأ الاستحمام بهذا المزيج الجاري أبداً.

ها نحن نستحمّ بعد ما يقرب من أسبوع من مغامرتنا السندباديّة، كانت متعة الاستحمام لا تضاهى، فالمياه دافئة دفّاقة، والضحى الوضّاء يغمر كل شيء، غسلنا ثيابنا الداخليّة، ونشرناها على الأشجار، وتمدّدنا فترة داخل المياه اللذيذة، ومن الطريف أنّ ثيابنا قد جفّت بعد ربع ساعة فقط من غسلها، عُدنا نتواثب فوق الصخور، فكلّ خليّة في أجسامنا كانت تنبض بنشاط ومرح.

يسمّون هذا المكان (الوَغْرَة)، ومعناها في اللغة (شدّة وَقْدَةِ الحَرّ)، وهذه التسمية تناسبها تماماً، فالمياه التي تنبع باستمرار من بين الرمال شديدةُ الحرارة، تُعَدَّل كما ذكرتُ بمزجها بمياه الأمطار السائلة من جبال اليمن.

شاهدت مؤخّراً (ريبورتاجاً) في التلفاز، يصوّر هذا المكان القريب من قرية (الخوبة)، فقد اهتمّت الحكومة السعوديّة بة، وأقامت فوقه بناء حديثاً، جعلته حمّامات للاستشفاء، وقد حضر أمير جيزان لافتتاحه.

ارتفع صوت المؤذّن لصلاة الجمعة من المسجد الوحيد في القرية، من إذاعة تعمل على المُدَّخِرَة (البطارية)، تُستعمل للأذان فقط ، لم يكن المسجد بعيداً، كان غرفة كبيرة، بُعداها عشرة أمتار طولاً وسبعة أمتار عرضاً، في وسطها عمود ليمسك السقف، مبنيّة من الحجارة الناتئة دون ملاط من الداخل والخارج، ولها نافذتان صغيرتان إحداهما من جهة الشرق والأخرى من جهة الغرب، لا أدري لماذا لم يجعلوهما كبيرتين، وأرضها مفروشة بالسجّاد الجديد الوثير، جلسنا في الصفّ الأوّل، كان الجو خانقاً، فقد غصّ المكان بالمصلّين، بدأنا نحن- المدرسين- نتصبّب عرقاً، والناس من حولنا لم ترفضَّ أبدانهم بقطرة عرق، وكأنّهم في جوّ ربيعيّ، وقف منصور، فهو كما ذكرت الفرّاش في المدرسة والمطوّع في المسجد، وربما كانت له وظيفة أخرى سرّية، لا أدري، فهو حتماً عين على المدرّسين، وقف أمامنا فلم يكن في المسجد منبر، يحمل كتابا متآكل الزوايا، يقلّب بحذر أوراقه الصفراء المتمرّدة على أرومتها، حتّى لا تسقط واحدة منها، فكلّ ورقةٍ حرّةٌ مستقلةٌ بذاتها، بدأ خطبة أظنّها كتبت في أوائل العهد العثماني، بسجعها وأسلوبها ومعانيها، وأظنّ أنّ المصلّين قد حفظوا المقدّمة والخاتمة عن ظهر قلب، لأنّها كما سمعتها في كلّ الجُمَع تتكرّر على مسامعهم، أمّا صلب الخطبة فبحسب الأسابيع والشهور، ففي الكتاب ثمانٍ وأربعون خطبة على عدد أسابيع السنة الهجريّة، فالأسبوع الأوّل من رمضان مثلا له خطبة خاصّة مرقّمة، والأسبوع الثاني له خطبة، وهكذا كلّ أسابيع الشهر والسنة، إضافة إلى خطبتين للعيدين الفطر والأضحى، وعندما كنّا نزور أصدقاءنا المدرّسين، ونصلّي في مساجد قراهم، نرى الكتاب ذاته، ونسمع الخطبة عينها، حتّى عندما كنّا نسافر إلى المدن والمناطق الأخرى لم يكن يختلف شكل الكتاب أو مضمون الخطبة، أمّا الدعاء لأولي الأمر الأتقياء الأنقياء خلفاء عمر بن عبد العزيز، فهو الدعاء نفسه الذي نسمعه في كل مسجد من مساجد عالمنا العربيّ والإسلاميّ.

أمّ منصور بالمصلّين وقرأ بعد الفاتحة سورتين من قصار السور، كان يكرّرهما كلّ أسبوع طوال العام، وأظنّه لم يكن يحفظ سواهما وبعضَ السور القصيرة الأخرى.

استهلكت سهراتنا الشبه يوميّة مع زملائنا المدرّسين كلّ موضوعات الدراسة وهمومها، ومشقّة العيش في هذه المنطقة العجيبة عاداتها واختلافها عن عاداتنا، وكان لا بدّ من أنْ تُطرح قضية فلسطين وموقف العرب منها، خصوصاً بعد أحداث لبنان وتل الزعتر، فكان رأي زميلينا الفلسطينيَّين نتيجة الإحباطات الكثيرة التي مُني بها الشعب الفلسطينيّ منذ النكبة، أنْ العرب كلّهم خونة، اشتد الجدال، وبيّنت أنْ سوريا طوال ربع قرن من النكبة وحتّى حرب تشرين لم توقف المعارك مع الكيان الصنيع، وكاد النقاش أن يتحول إلى نزاع، عندها وقف المدرس حسن وقال أنت شيوعيّ، وكلمة شيوعيّ في المملكة السعوديّة تعني الكفر بعينه، وربما يُعد إبليس ملاكاً للرحمة إذا ما قيس بالإنسان الشيوعيّ ، خفتُ أنْ يرّوج المدرّس حسن بين أبناء القرية هذه الفِرْية، أن المدرّس بسّام شيوعيّ، لا يعرف ربّه ولا دينه، وقعتُ في ورطة حقيقيّة، فالسلطات السعوديّة ليس لديها الوقت للقيل والقال والوقوف على حقيقة الأمر، فإلقاء المدرّس المتّهم على حدود المملكة ينهي الأمر بسلام.

أقلقتني التهمة، فكّرت مليّا.. ثم قلت: لا بدّ أنْ أجد لي مخرجاً، قلت للمطوّع منصور: أريد أن أخطب في المسجد هذه الجمعة، وترتاح أنت. رحّب بالفكرة، ربّما لأنّها ستخفّف عنه عبء تكرار الأقوال والآيات طوال مئات الأسابيع، كتبت خطبة عن الإيمان بالله الواحد الأحد وعقوبة المشرك وجزاء المؤمن، وأغنيتها بالآيات البيّنات والأحاديث النبوية، نقّحتها، وأعدتُ النظر فيها عدة مرّات لتفي بالغرض، وتكون بمستوى فهم أبناء القرية البسطاء الأميّين، طلبتُ من منصور أن ينسخها بخطّه الجميل نسختين، إذ لا عمل له طوال النهار، أعطيته واحدة منهما، وقلت له: ربّما تحتاج إليها بعد سفرنا لتقرأها خطبة في أحد أيّام الجمع. فعلت ذلك كي لا أفسح مجالاً لزميلي حسن ليدعي أنني دسسْتُ في خطبتي سم الشرك والإلحاد، فهناك نسخة أساسيّة لدى منصور وبخطّ يده، بعد أن ألقيت الخطبة أمَمْتُ بالمصلّين، وقرأت في الركعة الأولى صفحة كاملة من سورة (الملك) التي ربّما لم يسمعها أكثرهم، وهي تُتلى، وفي الركعة الثانية أتممْتُ صفحة أخرى منها، بعد انتهاء الصلاة وقف أبناء القرية المصلّون صفّين، وأنا أغادر المسجد يصافحونني، ويشكرونني على الخطبة العصماء التي لم يسمعوا مثلها من قبل، أُسقط في يد زميلي حسن، فقد أخذتُ شهادة براءة وحسن عقيدة وإيمان من كلّ أبناء القرية، فلا يمكن لأحد بعدها أن يصغي إلى تخرّصاته، كنت كلّ مدّة أُعدّ خطبة وألقيها يوم الجمعة لأقوّي موقفي وأقطع لسان كل متقوّل، وانتهى الأمر بسلام.

زُرْنا بعد الصلاة زميلينا في بيتهما المشيد من القصب، كان مظلماً، فليس فيه منفذ إلا فتحة الباب الوطيء، وهناك قعّادتان للجلوس والنوم، إنّه يبعث في النفس الريبة، فماذا تخبئ هذه الجدران في حناياها المنصوبة من أعواد الذرة!!، كانت عيناي تطوفان أركان الخُص (العُشَّة) وزواياه تَحَسّبا من أنْ يُطلّ منه أيّ زائر مشتاق.

بعد أن شربنا الشاي اتفقنا على أنْ يكتب كلّ منّا رسالة إلى أهله، ونذهب غداً صباحاً إلى (الخوبة) لتسليم الرسائل إلى مكتب البريد، فقد استقرّ بنا المقام، وحان الوقت لكي نُطمئن الأهل المتشوّقين إلى معرفة أحوالنا، وما حلّ بنا في غربتنا هذه في بلاد العجائب.

وقت الأصيل جلس كلّ منا منفرداً، يبثّ الورق لواعجه، ويحمّله أشواقه وأشجانه، رُحت أكذب، وأُطَمئن الأهل بأنّنا نعيش في منطقة شبه سياحيّة، تصلح للاصطياف، فكلّ شيء فيها هادئ نظيف مُعَدّ لاستقبال المدرّسين أحسن استعداد، وهنا وقعتُ في ورطة، فزوجتي- بعد أنْ كذبت وأخبرتها أن الوضع عندنا مثاليّ- مافتئتْ طوال العام وهي تطلب منّي أنْ استدعيها إلى مقبرة الأناضول هذه لتستمتع بأجوائها الرومانسيّة، وهي بقربي.

خرجنا مبكّرين لنذهب ونعود قبل احتدام أوار الشمس، وصلنا مكتب البريد في (الخوبة)، كان غُرَيفة من قرميد الطين عارية من أيّ أثاث، طولها مثل عرضها متران بمترين، ولها باب من قضبان الحديد الصدئة، ونافذة وحيدة صغيرة، تصلح لأن تكون غرفة حارس، والرسائل ملقاة على الأرض، وقد غطّتها الأتربة والقشّ وزَرَق الطيور التي تدخل من بين قضبان النافذة والباب الحديديّة، وقد تبيتُ هذه الطيور فوقها، ولو طال بها الأمد لوضعت بيوضها فوقها، ورقدت عليها، فهنا مكان آمن، علينا أن ننتظر حتّى يحضر سعادة مدير مكتب البريد، أو نلقي الرسائل داخل الغرفة، فيأخذها

حين يحضر، آثرنا أن ننتظر خشية أن تُفقد الرسائل أو تهمل، طال الانتظار، فموعد حضوره من منطقة المسارحة إلى الخوبة محدّد بيومي السبت والثلاثاء فقط، من دون تحديد ساعة وصوله بالسلامة، وكثيراً ما يتغيّب لسبب أو لآخر، فتؤجّل الرسائل إلى الموعد القادم، بعد ساعات عُدْنا إلى قريتنا خائبين مسرعين، فسعادة المدير لم يحضر، ولعاب الشمس بدأ يسيل، وينسج فوقنا كالعنكبوت وشاحه اللاهب.

مع ترادف الأيام وتشابهها بدأ الملل يتسلّل إلى نفوسنا، فلا شيء نفعله سوى القراءة وانتظار موعد الحجّ، وبعده يبدأ العام الدراسيّ، أخذنا نفكّر في عمليّة نتخلّص بها من شرب الماء المُطَيَّن، وتوفير الماء النظيف الصافي، وكما يقال (الحاجة أمّ الاختراع)، فقد أهدانا صانع الجرار في القرية واسمه (جرادة) جرّتين- وكان يبتع الجرّة بعشرة ريالات- لنملأهما بالماء الذي يحمله إلينا على الحمار سقّاء المدرسة من مسيل الأمطار في الوادي، فمياه الوادي التي تستقي منها القرية وغيرها من القرى مليئة بالحلزون المضيف لديدان البلهارسيا والمُنتِج لأجنَّتها المذنّبة، والتي لا تموت بدرجة الغليان، لذلك بدأنا نترك الماء في الجرّة الأولى أربعاً وعشرين ساعة حتّى تموت أجنّة البلهارسيا، ثم نغلي الماء حتّى تموت بقية الجراثيم، وبعدها نترك الماء حتّى يبرد، ثمّ ندلّي فيه قطعة من الشَّبِّ (كبريتات الأمنيوم المائية) ليساعد على ترسيب الأتربة والشوائب، ونسكبه في الجرّة الثانية النظيفة، ولكن كيف له أن يبرد في هذه البيئة المدارية الحارقة؟!، فكثيراً ما شربنا الماء دافئاً أوساخناً كالشاي، فيزداد العطش وتشتعل الغُلَّة، أو يأتي بعض رجال القرية ليشربوا من مائنا النظيف، فقد ساغ لهم ماؤنا، وهم يُعجبون من معالجتنا الماء بهذه الطريقة، ويقولون: الله!.. أنتم (تُخَمِّدون المُوْيَة)!!، أيْ تطبخون الماء، لأنّ فعل (خَمَّد) عندهم يعني طَبَخَ أو طَهى.

مرّة كنت أملأ كأساً من الماء، فوثب من داخل الجرّة ضفدع صغير، لا أدري من أين جاء؟!، وكيف دخل؟!، وكم دامت مدة زيارته في جرتنا؟!.. فكرت قليلاً، ثم أغمضت عينيّ، وشربت، فليس لدينا ماء غيره.

قلت: إنّ اسم صانع الجرار هو (جرادة)، عندما استغربنا هذا الاسم أعلمونا أنّهم يسمّون الوليد بحسب المناسبة التي يولد فيها، أو الحادثة المرافقة للولادة أو الوقت، فـ (جرادة) هذا وَقَفَتْ لحظة ولادته جرادة على باب الخُصّ الذي أبصر فيه النور، فسمّوه (جرادة)، وأخرى اسمها (جمعة)، فقد ولدت عند أذان صلاة الجمعة، وثالثة اسمها (وَشِيْلَة) أي الرِّهام أو المطر الخفيف في لهجتهم- والوَشَلُ في اللغة هو الماء القليل الذي يتحلّب من صخرة أو جبل، يقطر قليلاً قليلاً، ولا يتصل قَطْرُه- وقد وُلدت هذه الوشيلة، والسماء تنثر رذاذاً ناعماً دقيقاً، وهناك أسماء لم نجد لها أصلاً أو معنى، مثل (داحش)، وربما كان محرّفاً عن (داحس) الفرس المشؤومة التي من أجلها قامت أطول حرب في الجاهلية، كما أنّهم يكثرون من تسمية (علي)، طبعاً من دون ارتباط بمذهب أو طائفة، فالتزامهم الدينيّ عاديّ بل سطحيّ، والمملكة السعوديّة تحاول أنْ تنشر بينهم المذهب الوهّابيّ، لكنّهم يقولون: إنّ أصولنا تعود إلى (حِمْيَر) طبعاً دون أن يعرفوا من هي حمير أو أبو حمير الذي تنتسب القبيلة إليه، وما هو تاريخ اليمن. أمّا سميّ المرء أي الشخص الذي يُسمّى بمثل اسمك مثلا، فله عليك دالّة، ولك عليه أيضاً، فيزورك، وتزوره من غير معرفة سابقة، وكأنّة أخ شقيق.

صباح الثلاثاء توجّهنا إلى (الخوبة) مبكّرين، وكسابقه يوم السبت جلسنا على حجارة جانب مركز البريد ننتظر، بعد ساعات وقف بعض الحاضرين، وقالوا: وصل المدير، تلفتّ لأراه، فانتابني شعور غامض بالانتصار، شعور (شامبليون) حين فكّ رموز حجر الرشيد، كنتُ أركّب في خيالي صورة لجُحا، وهو على حماره وبيده عصاه ينخسه بها، فلم أوفَّق طوال سنوات، فإذا بالصورة حيّة أمامي في شخص سعادة مدير مركز البريد، لا أظنّ أنّ (هولاكو) عندما دخل بغداد فاتحاً منتصراً كان أكثر منه عظمة وانتفاخاً، مع أن وزنه لا يزيد على أربعين كيلو غراماً، كان يرتدي الزِّي اليمني، ترجّل عن صهوة حماره الضامر- كما كان يترّجل (دون كيشوت) من فوق حماره- بثقة المنتصر، من دون أن يرانا أو نلفت انتباهه، بعض الرجال في هذه الزاوية من الدنيا –التي ما يزال سلوك أهلها ينتمي إلى عصر اكتشاف النار- لا يلبسون سراويل تحت الحوكة، إمّا لسهولة الحركة وإمّا للتهوية، وكان صاحبنا من هذه الزمرة، فعندما ترجّل بان ما بان ممّا كان في ستر وأمان، عطّونتان ذابلتان، وشيء يخجل منه البيان، ثمّ ربط حماره بحديد نافذة المركز- مربطه الدائم كما يظهر من بقايا الحمار، والذباب الذي يحطّ ويتطاير فوقها- وتقدم ببطء ووقار، وفتح الباب، وراح يمدّ يده إلى خُرْجِ حماره، ويلقي بالرسائل الواردة على الأرض في زاوية المركز فوق الرسائل القديمة (ديوان الوارد)، ثمّ تراجع إلى الوراء، وكأنّ الأمر لا يعنيه، تقدم المجتمعون، وأكثرهم من المدرّسين، جلسوا القرفصاء، وشرعوا ينبشون كومة الرسائل، يبحث كلّ واحد عمّا يخصّه، أو يَخصّ أصدقاءه الذين لم يحضروا، ثم انصرفوا، وتركوا ما تبقى من الرسائل ليحضر أصحابها فيما بعد، أثناء ذلك تقدّمت إلى ساعي البريد وسألته: هل هناك سجلّ خاصّ بالبريد المضمون؟، وكيف نستلم الرسائل المضمونة؟. نظر إلي بعين واحدة وشردت الثانية إلى الجبال، كان أحول، فاحترت في أي عين أنظر، جمد دقيقة وكأنّه يترجم ما قلته إلى لغة ثانية، ثم أشار بيده إلى الرسائل المكوّمة دون أن يتكلّم، عدتُ وسألته: هل نجد الرسائل المضمونة وغير المضمونة في هذه الكومة؟، لكنّه هذه المرّة لم ينظر إليّ بل تشاغل عنّي بالنظر إلى البعيد، ألقينا برسائلنا على الأرض المتربة في الزاوية الثانية (ديوان الصادر)، وانصرفنا، وقلوبنا مع الرسائل، نُوْدعها دعاءنا، علّها تصل بالسلامة، إذ لا يوجد صلة وصل بيننا وبين الأهل إلا خيط الرسائل الواهي هذا، وأمناء البريد كهذا الهولاكو العتيد، فكم من رسالة فقدت، أو وصلت بعد أشهر، والمشكلة أن الأهل يرسلونها بالبريد المضمون، آه لو يعلمون أيّ بريد وأيّ مضمون..!!، سأستبق الأحداث قليلاً، ففي نهاية العام الدراسي بعثت رسالة إلى الأهل، أخبرهم فيها بموعد عودتي إلى مدينتي الحبيبة بعد غربة عام أعجف، وصلت حلب بعد ما يقرب من شهر، ولم تصل رسالتي، ثم استلمتها بيدي بعد أسبوعين من وصولي، ويبدو أنّها أيْ الرسالة قد قطعت المسافة من جيزان إلى حلب سيراً على الأقدام، فمرّتْ بالبوادي والقفار، واستراحت في الأوابد والديار، وقبّلتْ كلّ نُؤْيٍ وجدار، ثم وصلتْ مبهورة الأنفاس مجلّلة بالغبار. طيّب الله ثراك يا (بديع الزمان)، فقد وصلنا إلى (زمان) جَعَلَنا نحِنُّ فيه إلى (بديعك).

في طريق العودة إلى قريتنا (قوّا) تذكّرت الشاعر شفيق معلوف، وتصويره المرهف لساعي البريد حامل الأمانات الإنسانيّة الذي يطوف على البيوت، يوزع على المشتاقين المنتظرين الرسائل والابتسامات :

ساعي البريدِ وما ينفكُّ مُنطلِقاً ... وكلّ بابٍ عليه غيرُ موصودِ

يسعى بأكداس أوراق مُغَلَّفَــةٍ ... تفوح منهنَّ أطيابُ المواعيدِ

يا ساعياً بابتساماتٍ توزّعهـا ... على الشفاهِ بلا مَنٍّ وترديـــدِ

أنهض مبكّراً قبل أنْ تنهض الشمس- عادتي منذ طفولتي كما تقول أمّي- أجلس في سريري مع كأس من الشاي وصوت فيروز يسحر الصباح، أتأمل السهول والوديان، بينما الهدوء الساذج يجلْبِبُ القرية الغافية، وقد خمدت الكلاب، وتعبت الجنادب، ثم تستيقظ الشمس، وتوقظ معها القرية، فتدبّ الحياة في أعطافها رويداً رويداً، يبدأ دخان المواقد والتنانير يعلو، وتبدأ القدور تتنفّس، ويختلط الثغاء بالرغاء بالخوار.. وينشط كلّ حيّ، مشهد يذكّرني بقرى الهنود الحمر التي رأيناها كثيراً في الأفلام الأمريكية (الكوبوي)، مع فارق بسيط في شكل الأكواخ وملابس الناس، بيتُنا في أعلى

القرية بجانب الممرّ الوحيد إلى الجبل حيث قضاء الحاجة البيولوجيّة لأهالي القرية، يبدأ من أمام بيتنا المشوار اليوميّ المُلْزِم، يخرج الرجل أو المرأة وبيد الواحد طاسة كبيرة مملوءة بالماء، يجتاز القرية بين الأكواخ القصبية من أدناها إلى أعلاها أمام الجميع، فالقرية ترقد على منحدر صخريّ أطرافه الثلاثة سهليّة منفتحة على الوديان والسهول، لا تستر ولا تحمي، أمّا الطرف الرابع في أعلى القرية فصخريّ مليء بالشعاب، تسير المرأة وبخاصة الفتاة بغنج ودلال، لماذا؟! لا أدري!، تدفع عجيزتها المكوّرة إلى الوراء، وتؤرجحها يميناً ويساراً، وهي تتصعّد الدروب المتعرجة، وتهزّ ثدييها الحرين بحركة مغرية، وهي صاعدة، وتُنَطّطْهما وهي عائدة نزولاً، فهي لا تعرف الإثار (حاملة الثدي) أو (السوتيان)، لكنّ أيّ فتاة سوداء تعجز عن هزّ ثدييها لصلابتهما، فكأنّ جسد السوداء عضلة وواحدة متصل بعضها ببعض، وربّما أرسلت الفتاة الصاعدة برقيّة خاطفة من عينيها الباسمتين إلى مُنتظِر أو سانح، أما الرجل فيسير بخفة الغزال، يغيب الواحد بين الصخور الناتئة، ثم يعود بعد ربع ساعة خاوي الوفاض فارغ الإناء، وقد تخفّف من كلّ شيء يحمله أو يؤزمه، رشيقاً في نزوله المنحدر مغتبطاً، كطائرة حربية ألقت قذائفها على الأعداء، وعادت خفيفة سريعة، وربّما كان هذا المشوار الصباحيّ الضروريّ سانحة، يكمن فيها العاشق، ليصطاد من عيني حبيبته نظرة مع ابتسامة خبيثة، تطفئ نار وجده.

بعض الفتيات اليافعات اللواتي لم يدركنَ بعدُ قيمةَ أنوثتهنَّ ، كنَّ يستصعبنَ الصعود إلى قمة القرية الصخريّة لقضاء الحاجة السريعة، فكانت الغريرة المِكْسال منهُنَّ تتلفّت في كلّ اتجاه- فأهل القرية ينامون بعد الغروب إذ لا إضاءة لديهم إلّا مصابيح الكاز، ويستيقظون في غبش الفجر- وعندما تأنس الفتاة ألّا حركة، ولا أحد يدبّ في المسالك حولها، تختار زاوية في منعرجات القرية الملتوية، تراها ساترة، تقبع فيها، وتنهي أمورها السريعة بسرعة، وتعود إلى بيتها، وقد وفرّت على نفسها عناء تسلّق القمة.

فتاة سوداء ناهد مكتنزة اللحم، جسمها الأجرد الصقيل تلمع بَشَرَته الحالكة تحت الشمس، تصل بيتنا في مشوارها الصباحي الضروري، فتتمهّل، وترسل نحونا نظرات مريبة، أبو عماد يكاد أن يكون في شعره العسلي وزرقة عينيه وطوله الفارع ألمانيّاً بحتاً، وكأنّه قد وصل لتوّه من ضفاف (الراين)، نتساءل ماذا تريد هذه الغريرة اليافعة؟!، هل هي معجبة باللحم الأبيض؟!، نتشاغل عنها خوفاً من نظرات الناس وألسنتهم، إنْ هم لاحظوا أمرها، فما أسرع ما تنتشر في القرى الشائعات، وتتناقلها الألسن، ففراغ الحياة وسذاجة الناس يدفعانهم إلى التعلّق بأي خبر وإذاعته، فأهل هذه المنطقة من ثلاثة أصول إن صحّ التوصيف، أوّلهم يمنيّون، وهم سكّان المنطقة الأصليّون كما يدّعون، وبَشَرَتهم سمراء ضاربة إلى البنيّ، وثانيهم السعوديّون الذين يدّعي اليمنيّون أنّ حكومتهم وطّنتهم في هذه المنطقة، ليحقّقوا التوازن الديموغرافيّ مع السكان الأصليّين، وبَشَرَتهم أقلّ سمرة من اليمنيّين، واليمنيّون يعدّونهم محتلّين مغتصبين الأرض والسيادة، وقد سارّني مرّة أحد اليمنيّين حاقداً ناقماً فقال لي: أترى إلى منصور هذا، سأجلس يوماً ما على القعّادة، ويقوم هو بصبّ القهوة لي، ومنصور كما ذكرت من قبل من أصل سعوديّ، وثالثهم الأخدام أيْ الخدم، وهم القادمون من الحبشة أو القرن الإفريقيّ منذ مئات السنين، إنْ لم يكن من آلاف السنين- فزَبيبة أمّ عنترة العبسيّ أَمَةٌ حبشيّة سوداء، ولم يلحقه أبوه أوّل الأمر بنسبه جرياً على تقاليد العرب الذين لا يُلحقون بأنسابهم أبناءَهم من الإماء، وكذلك أمّ السُّليك بن السُّلكة، وغيرهما كثير من أمّهات الصعاليك- ولون بَشَرَتهم أسود حالك، وهم الطبقة الأدنى في السلّم الاجتماعيّ، وينظر إليهم الآخرون نظرة عنصريّة، فلا يتزاوجون منهم، ويعمل هؤلاء الأخدام في المهن الممتَهَنة في نظر السادة، والتي تأنف الطبقتان الأخريان أن تعملا بها .

والعمل إجمالاً محتَقَر أو غير مستَحَبّ في نظر السادة- والسعوديّون هم الذين يرون أنفسهم أنهم السادة- فيقولون: "العربي إمّا إمارة وإمّا تجارة"، أيْ إمّا أن يكون العربي أميراً وإمّا أن يكون تاجراً فقط، (قانون الثالث المرفوع)، وتسعى حكومة المملكة السعوديّة في المناهج التعليميّة والحملات الدينيّة ووسائل الإعلام إلى أنْ تغرس في نفوس الشباب حبّ العمل وتقديسه، وترفع مكانة الإنسان المنتِج المبدِع لمَحْوِ فكرة احتقار العمل من رؤوس الشباب، وهناك مِهَن محتقَرَة جداً في هذه المنطقة، لا يعمل بها إلا الأخدام، أدناها الختّان ثم ضارب الطبل وبعدها بائع السمك ورابعها

(المُدَبِّع) أيْ الحلاق، حتّى إنّ الطلّاب يشكو بعضهم بعضاً، فيقول الطالب يا أستاذ: فلان يقول لي أبوك مدبِّع، فهذه الكلمة تُعدّ عندهم شتيمة.

في الأسبوع يومان تعطّل فيهما الدوائر الحكوميّة الخميس والجمعة، في أحد أيّام العطل كنت أحلق ذقني في ظل البيت وقت الضحى، جاء الفرّاش منصور وقال لي: هل بإمكانك أن تحلق لي رأسي- فأكثر الرجال هنا يحلقون رؤوسهم بآلة الحلاقة كما يُحلق الذقن، وقد يتركون ناصية في المقدّمة- فشرعت أحلق له ونحن نتسامر، وإذا بامرأة من الجوار تركض مصعوقة ملهوفة تصيح: يا أستاذ كيف (تُدبِّع) له رأسه؟!، أنت أستاذ كبير، لا يليق بك أن تقوم بهذا العمل الجيفة، ثمّ توجّهتْ إلى منصور توبّخه وتقرّعه على التغرير بي، لأنّني لا أعرف العيب الذي يلحق بي جرّاء هذا العمل. قلت في سرّي ليت والدي علّمني مهنة الحلاقة وبخاصّة الحلاقة النسائيّة، ولم يرسلني إلى المدرسة، ولو كان فعل لأغناني عن أمور كثيرة، منها رحلتي (البطّوطيّة) هذه إلى بلد العجائب، نسبة إلى ابن بطّوطة.

لذلك إذا شاع أمر هذه الفتاة السوداء ونظراتها المريبة إلينا، فلا شيء يمنع سكّان القرية من القيل والقال، فهي من الأخدام، ولا يتحرّجون من تناول سيرتها بأيّة تهمة، وبالتالي سيرتنا.

في اليوم الأوّل من ذي الحجة اجتمعنا في المدرسة، فالمحاسب سيحضر، لإعطائنا الرواتب، قاربت الساعة الثانية عشرة، فإذا بسيارة (بيك آب) ضخمة تقف أمام المدرسة، تْقلّ شخصاً واحداً فقط، ترجّل منها، ظننتُه أوّل الأمر سعادة مدير مركز البريد، لكنّه يلبس دشداشة بيضاء، ويضع على رأسه شملة حمراء، ويحمل حقيبة (سمسونايت)، أظنّها أثقل منه، يتطاول بقامته، ولكن أنّى له أن يصل إلى إبط زميلي أبي عماد، دخل عجولاً مهتماً دون أن يلقي سلاماً، وكأنه (هتلر) حين دخل ليعدّ خطّة الهجوم المفاجئة على الجبهة الروسيّة، جاء دوري فسألني ماذا أحمل من شهادات، وكم سنة خبرة عندي؟، دون أن يرى أيّ وثيقة، ثم أخذ يحسب، قال راتبك الشهري /2700 / ريال، قلت له: المبلغ الذي حسبتَه حضرتُك فيه زيادة عمّا أستحق، في الحساب غلط، ردّ بتعالٍ: هذا شغلي، أنت لا تعرف تحسب، أردت أن أشرح له أنّني ربما أُسال يوما ما، أنّني أَعطيت معلومات مغلوطة، فلم يمهلني كي أوضّح له، بل أعطاني المبلغ الذي حسبه وقدّره، وقال لي: هذا راتبك طوال العام، وهكذا بقيت أتقاضى راتبي مع الزيادة أو الغلط، وأرجو الله أن يغفر لي، وأرجو من إخوتي السعوديّين أن يسامحوني .

تذكّرت عندما قبضت في سوريا راتبي الأوّل، كيف استمرّت المعاملة ستة أشهر، فقد زارت المعاملة أكثر دوائر الدولة، وتباركتْ بأيدي عشرات المديرين، وداختْ (السبع دوخات أو السبعين دوخة)، وحملتْ في النهاية ما يقرب من مئة توقيع وخاتم وإحالة وشرح وتدقيق ومشاهدة، ولله في أمر كل دولة شؤون.

ركب المحاسب سيّارته العالية وانطلق، فبدا كعصفور يقود دبّابة، دخل علينا أحد الجيران المسنّين، ودار الحديث حول الرواتب كثرتها وقلّتها، والقيمة الشرائيّة للريال، فقال لنا: احمدوا الله أنّكم أخذتم رواتبكم ريالات زَلَط أيْ نقداً، أنا كنتْ من الحرس الملكيّ أيّام الملك عبد العزيز رحمه الله، وكنّا نأخذ رواتبنا (مِلْحا)، نحمل الملح ونذهب لبيعه في الأسواق، تأمّلت في الأمر، ماذا لو أعطونا رواتبنا مِلْحاً.

كنا كلّ يوم سبت وثلاثاء نقصد مديريّة البريد، ونعود خائبين، وصلت الرسائل بعد ثلاثة أسابيع، وصلتني رسالة من والدي وأخرى من زوجتي، تلقّفتهما كما يتلّقف الوليد ثدي أمه المُترَع حناناً وعطاء، قرأتهما في طريق العودة إلى القرية أكثر من مرّة، وفي البيت أعدت قراءتهما، ثم شرعنا نكتب الردّ. منذ أن وصلتُ قرية (قوّا) وأنا أنظم قصيدة إلى زوجتي، كنت أنقّحها، وأشذّبها، فأنا لست بشاعر، ولا أدّعي الشاعرية، لكنْ بين الحين و الآخر ينبض ينبوع الشعر في داخلي، وينساب شحيحاً، فأستقي منه بعض الأبيات، التي ربّما تُعدّ شعراً، وسوف أثبت بعضاً من أبياتها، محافظاً على أخطائها وخللها، وبخاصّة في القافية وحروفها :

قُوّا لقد شاءَ الإلـــهُ وقـــــــدَّرا أن نفترق ، والحبُّ روضٌ أزهرا

قضَتِ المشيئةُ لا مَرَدَّ لحُكْمِـــــها فإذا الأحبةُ عِقــــدَ فُـلِّ بُعثِـــــرا

مُتفرِّدٌ مُستوحشٌ في غربتـــــــي كالشوكِ في الصحراء أحيا صابرا

وتَمرُّ ساعاتُ النهار بطيئـــــــةً فإخالُها من فَرْطِ يأسي أشهــــــرا

والليلُ من طول السُّهاد أظنـُـــــه دهراً يطولُ ، فكيف لي أن أصبــرا

وأغيب في حُلْمِ الرجوع مُمنّيــــاً نفسي الحزينة باللقاء مبكــــــــرا

وأسائلُ البدرَ الحزينَ بلهْفــــــةٍ يا بدرُ هل شاهدتَ بدراً ساحــــــرا

أو هل مررْتَ بدار هندَ بليلـــــةٍ فنقلْتَ شوقيْ والسلامَ مُعطَّــــــــرا

وسكبْتَ في أهدابها ذَوْبَ اللُجين ورحْتَ تغمرْ شعرَها المُتناثـِــــــرا

وهمسْتَ بالوَجْدِ الحزينِ برقــــةٍ وغمرتَ بالقبلات وجهاً مُقْمِـــــــرا

أودعْتُ في حلبِ الأماني مُهجتي وذرفتُ عند وداعِها دمعاً جـــــرى

يا هندُ قد جارَ الزمانُ بحكمـــــه فالصبرُ في الأحداثِ خيرٌ للــــوَرى

قبل يوم السفر إلى الحجّ، ذهبنا لنغتسل في (الوغرة)، تمدّد كلّ منّا في حفرة، صنعها بنفسه، جلسنا نتمتّع بالماء ونتبادل الفكاهات، جاءت امرأة ومعها أولادها، صنعتْ حفرة في الرمل، لا تبعد عنا أكثر من ثلاثين متراً، خلعت ثيابها حتّى السُّرة، جلست في الماء مع أولادها، فبدا نصفها الأعلى عارياً، أخذوا يستحمّون، ويلعبون، ويتصايحون، زميلنا الفلسطينيّ (حسن) الذي درّس في هذه القرية العام الماضي، قرأ التساؤل في عيوننا، فقال: لا تعجبوا، حجاب المرأة عندهم هنا من السُّرة إلى القدمين، أما القسم العلوي مع الثديين فهو (حق البُزورَة) كما يقولون، أيْ مخصّص للأطفال فقط للرضاعة، لذلك لا عيب من أن تكشف المرأة نصفها العلويّ، عندها تذكّرت المرأة اليافعة بائعة الكولا وثديها الذي لم تستره، ولم تتحرّج من إظهاره أمامي في اليوم الأوّل الذي وطئت فيه القرية، وبعدها علمنا أنّه في الجاهليّة- ويعنون بالجاهليّة هنا الفترة التي سبقت دخول السعوديّين إلى هذه المناطق في ثلاثينيّات القرن العشرين، وربّما روّج السعوديّون لهذه التسمية حتّى يَظهروا أنهم رسل هداية وحضارة- في جاهليّة هذه البلاد كما أطلق عليها السعوديّون، أي قبل خمسين سنة لم تكن المرأة تستر قسمها العلوي من شدّة الحرّ، فنرى حتّى الآن بعض النساء وبخاصّة المتقدّمات في السنّ، يلبسنَ قطعة قماش مقوّرة من وسطها، تشبه الخُرْج الذي يوضع على ظهر الراحلة، تسمى (الصُّدْرَة) تُدخل فيها المرأة رأسها، ويتدلّى نصفا القماش إلى الأمام والخلف، والذراعان عاريتان، فإذا انحنت المرأة لأمر ما، تدلّت قطعة القماش الأماميّة، وتبعها ثدياها حرّين طليقين، وبان بطنها عارياً، دون أن تشعر بالحَرَج.

وربّما كانت هذه العادة متوارَثة عن الجاهليّة الأولى قبل الإسلام، فكانت المرأة آنذاك تطوف حول الكعبة، وهي عارية الصدر، وربما تكشف أكثر من ذلك كما جاء في كتب التراث.

بعد مدّة كنّا نستحمّ جميعاً في الوغرة، جاءت امرأة في منتصف عمرها، إمّا أنّها معتوهة، وإمّا لها قصد آخر، وإمّا أنّها لم تنتبه إلينا، ولا أظنّ ذلك، فنحن لا نبعد عنها أكثر من عشرين متراً، نصخب ونتمازح، أقعتْ تقضي حاجتها، رابنا الأمر، وانطلقنا نجمع ثيابنا، ونهرب كالجبناء من المعركة خائفين، ينادي المتأخّر زملاءه: انتظروني حتّى الحق بكم، فالريبة قد توقعنا في التهلكة، والحكم علينا خصوصا أنا وأبو عماد المتزوجان قاسٍ إذا ما أقيم علينا حدّ الشرع، فكنّا نوصي بعضنا بعضاً في كلّ مناسبة على سبيل المزاح: انتبه العقوبة شاحنة قلّاب حجر.

في الحج

المشاهدات في الحجّ تحتاج إلى كتاب مستقلّ، ولكنْ سأكتفي بذكر بعض المواقف التي ربّما تلفتُ النظر أكثر من غيرها.

عندما توجّهنا برّاً من المدينة المنوّرة إلى مكّة المكرّمة وقفتْ بنا السيّارة بعد خمسين كم عند مسجد، قالوا لنا: هذه (أبيار عليّ) ميقات الإحرام، أيْ مكان الإحرام للمتوجّه من المدينة إلى مكّة، وعلى القاصد بيت الله للحجّ أنْ يُحرم من هنا، المكان مسجد قديم، وبجانبه أرض مسوّرة بالقرميد إلى ارتفاع مترين، ورجل حوله براميل مملوءة بالماء، وعلى الحاجّ أن يشتري منه دلو ماء حتى يغتسل غُسْل الإحرام، اشترينا مع المشترين، كان ثمن الدلو خمسة ريالات، دخلنا الأرض المسورة، فإذا بالرجال عراة تماماً كأبينا آدم قبل الخطيئة، وقد أداروا وجوههم إلى الجدران ليستتروا على حدّ زعمهم، يصبّون الماء على رؤوسهم وأجسادهم، وينوون القيام بالركن الخامس من أركان الإسلام، وقفت أنا وزميلي أبو عماد حائرين، إذ كيف يجوز للمسلم أن يكشف عورته الخلفيّة أمام الآخرين، انتحينا زاوية المكان، وقفتُ أستر زميلي بقطعة من ثياب الإحرام حتّى خلع ثيابه واغتسل، ولبس ثياب الإحرام، ثمّ تبادلنا المهمّة.

دخلنا المسجد القديم، جماعةٌ من الرجال والنساء، وهم وقوف بثياب الإحرام، يتحلّقون حول رجل يدعو الله بحرارة وضراعة، ولكنْ بلكنة أعجميّة، فيردّدون دعاءه بأشدّ حرارة، ومنهم من يبكي، علمنا أنهم حجّاج أتراك، وقفنا معهم، ندعو ونبتهل، فقد أسَرَنا دعاؤهم الصادق وإيمانهم العميق، كما تنبئ ملامحهم وحركاتهم ودموعهم، إذ لا شيء يدعوهم إلى أنْ يظهروا انفعالاً كاذباً، فلم نكن نتوقع هذا الإيمان الخالص من غير الناطقين بالعربيّة.

صلّينا ركعتين، ثم استأنفت السيّارة انطلاقها الرائع على طريق (المدينة مكّة)، كانت سيّارة قوّية وحديثة، يقولون لها (وانيت)، أنا وزميلي جانب السائق، اشتدّ الحرّ، والتمع الآل، كانت أشعة الشمس تخترق زجاج السيّارة غاضبة رغم المكيّف الذي يهمس برداً وسلاماً، وكأنها تقول: أين تهربون من سطوتي!.. قال السائق مبتسماً:

ـ تسمعون بالسراب، الآن سنمرّ بشاطئ البحر، وأريد منكم أن تفرّقوا بين السراب والبحر مع أمواجه. من بعيد هدرت الأمواج على بعد مئات الأمتار، أنا من عشّاق البحر، أعرفه في صحوه وفي غضبه، في صيفه وفي شتائه، قلت له:

ـ هاهو البحر.

ابتسم وقال:

ـ لننتظرْ.

سارت السيّارة ربع ساعة.. نصف ساعة.. بسرعة كبيرة، والأمواج مكانها على بعد مئات الأمتار لم تقترب، تتلاحق من بعيد، تجاوزنا ساعة والأمواج لم تهدأ، وكأنها الغانية اللعوب التي تتراقص، وتبدي مفاتنها لطالبها، ولا تنيله مراده، أخيراً قال السائق:

ـ هذا هو البحر.

لم نصدقه، هدّأ السرعة قليلاً، فإذا بالبحر الأحمر على يمين الطريق، يحيّينا بأمواجه الزرقاء، وكأنّه يقول لنا: هأنذا البحر، أنا لا أَخدع أبداً، فهلمّوا إلى حضني الدافئ.

كنت أسمع بالسراب وخداعه، وأسمع بالمثل الذي يقول: (هو أخدع من سراب)، وأتخيّل التائه في الصحراء، كيف يحسبه ماء، فيجري وراءه، وهو يهرب منه، حتّى تدركه المنيّة عطشاً، كنت أظنّ السراب ظاهرة مبالغاً فيها، لا تتعدى خطّاً أزرق، يتلامع فوق رمال الصحارى، أو أنّه من خيال الشعراء وشطحات الرومانسيّين، الآن علمت يقينا أنّ السراب ظاهرة علميّة ومعجزة حقيقيّة من معجزات الخالق وسط الصحارى القائظة.

الطريق إلى مكّة المكرّمة طويل وقاحل، فلا شيء إلّا الشمس والرمال والأرض اليباب، وخط أسود يشقّ بطن البوادي، تدبّ فوقه السيّارات اللاهثة ذهاباً وإياباً، مررنا بباصٍ مليء بالحجّاج، نساء ورجالاً بثياب الإحرام، والرجال حاسرو الرؤوس كما تفرض شعائر الحجّ، لكنّ الباص دون سقف والشمس ترعف لهباً، وتنصبّ على رؤوسهم العارية، حدّثت نفسي: ما أسوأ حظّ هؤلاء المساكين، لقد اضطروا إلى السفر بباص لم يكتمل إصلاح سقفه، فكان عليهم أن يذوقوا شواظ جهنّم في هذه الظهيرة الصائمة، أسيت لحالهم، وقلت: أعانهم الله على محنتهم، فنحن نجلس في فم المكيف، والشمس تنفذ من زجاج السيّارة، وتصلينا بوهجها، مررنا بباصٍ ثانٍ على تلك الصورة، ثم بثالث ورابع، لا.. الأمر ليس مصادفة ألّا يكتمل إصلاح أسقف كل هذه الباصات، كان بإمكانهم أن يغطّوا الباصات ببساط قماشيّ أو بأيّ شيء يحميهم، سألت السائق عن سرّ هذه الباصات المبتورة الرؤوس، قال: هؤلاء جماعات من المتشدّدين في الدين، يريدون أن تكون معاناتهم أشدّ وعذابهم أكبر حتّى يكون ثوابهم أعظم، لأنّه في اعتقادهم الثواب على قدر العذاب، لذلك تعمّدوا إزالة أسقف الباصات لتنال منهم الشمس، فينالوا في الآخرة الدرجات العليا، قلت له: يبدو أنّنا لسنا من أصحاب الدرجات العليا، ولا نقدر على ارتقائها، رحمنا الله، وأعاننا على طاعته وعبادته.

مكّة المكرّمة أيّام الحجّ عالم آخر لا يشبهه أيّ عالم، حدائق ممّا أبدعت قدرة الخالق، حدائق من الأجناس والأشكال والألوان، فيهم من كلّ عرق ولسان، جاؤوا من كل بقاع المعمورة، مستجيبين لنداء الحقّ، ملبّين الدعوة لإتمام أركان الإسلام، يجمعهم الهتاف الخالد (لبّيك اللهمّ لبّيك)، إنّهم في ميزان السماء سواء كأسنان المشط، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالعمل والعبادة ومنفعة أخيه الإنسان، يقفون للصلاة بين يديّ الرحمن صفّاً واحداً ولباساً واحداً وقرآناً واحداً ودعاءً واحداً ولساناً واحداً يسبّح لبارئ الأكوان، يقفون جنباً إلى جنب، لا فرق بين أمير أو أجير، بين مُنْعَم أو فقير، بين عالم أو غرير، لقد جمعتهم كلمة الله، فأصبحوا بنعمته إخواناً، فخلت نفوسهم من الضغائن والمطامع، وتبرّأت نفوسهم من الشهوات. إنّه الحشر الأصغر في الدنيا الفانية، يُعدّون أنفسهم للحشر الأكبر يوم الوقوف أمام الديّان.

تسير وسط باقات من أجناس البشر، يتحلّقون حول مرشدهم كورود متفتّحة، فلكلّ مجموعة قائد، يقال له (المطوّف) يطوف بها أرجاء البيت العتيق، يعلّمها كيف تؤدي شعائر الحجّ، ويوجّهها إلى كلّ ركن من أركانه.

تظنّ أنّك في عالم أسطوريّ غير عالمك المعهود، تُصاب بصدمة الدهشة والفرحة والعجب، هؤلاء الملايين الذين جاؤوا من كل أطراف الأرض، لا يعرف بعضهم بعضاً، كيف ينتظمون في دقائق صفوفاً متناسقة مترادفة، إذا ارتفع الأذان للصلاة؟!، وكيف يؤدّون حركة واحدة وقوفاً وركوعاً وسجوداً؟!، وكيف يرتفع صوتهم واحداً (الله أكبر)؟!، وكيف يعودون جماعات إذا قُضِيَت الصلاة؟!، وكيف يتفرّقون إلى مضاجعهم، إذا حانت ساعة الرقاد؟!، إنّها صِبغة الله في خلقه، فأعجبْ به من خالق عظيم!.

كنّا نجول حول المسجد الحرام، ونطوف في الأسواق، ونتعمّد دخول الحارات الضيّقة، لنتنسّم عبير ترابها الذي لامس جباه الخاشعين الأوائل، ونكتشف سرّ هذه البقعة الطاهرة مجلى الأنظار والأرواح.

كانت تستوقفنا في تطوافنا مشاهد تدعو إلى التساؤل، منها مشهد الفتيات الأندنوسيّات، وهن يبعن البيض المسلوق، تلبس الواحدة منهن ثوباً مقوّر الصدر، يكشف عن قسم كبير من فتحة ثدييها، فأتساءل: أترى الجميع ذاهلون عنْهنَّ بالعبادة، فلم يَلفتْنَ نظر أحد؟!، لماذا لم ينتبه إليهنَّ الرجال السرّيون والمشرفون على سير الحج؟! والأمر الغريب أنّنا لم نر طوال أيام الحجّ جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، علمت بعدها من إحدى الخادمات الأندنوسيّات أن بعض النساء عندهنّ في ذلك الوقت كنَّ عندما يذهبْنَ إلى البحر يلبسْنَ ثياب السباحة (المايوه)، وإظهار ما يظهرْنَ في مكّة كان أمراً طبيعياً، ولكنْ الآن بحمد الله انتشر الوعي الإسلاميّ بين النساء الأندنوسيّات، والتزمْنَ بالحجاب الشرعي.

من عادة الحجّاج السوريّين أن يجلسوا في الفترة بين كلّ صلاتين- وبخاصّة بين العصر والمغرب- في الجهة الشماليّة من الكعبة أمام مزراب الرحمة، فيلتقي الحجّاج السوريون بعضهم ببعض على غير موعد، أو إذا ضلّ أحدهم عن مجموعته، فإنّ اللقاء غير المحدّد يكون في هذه البقعة من الحرم، شاهدت حاجّاً من حيّنا في حلب، كان في سنّ والدي،

سلّمت عليه، وعرّفته بنفسي، وكان ابنه مدرّساً وزميلاً لي في التعليم، دار الحديث بيننا منوّعاً إلى أن جئنا على ذكر عدد حجّاته، فرفع ثمانية أصابع دون أن يتكلّم، يدلّ بها على عدد حجّاته- كان موظّفاً، وكان والدي يعرفه، ويقول لي: إنه جمع ثروة كبيرة، وبنى عمارة من أربعة طوابق مستغلّاً منصبه- وكان يجلس بجوارنا حاجّ من ريف إدلب (غربيّ حلب)، يسمع حديثنا، فسأله بلهجته الإدلبيّة: "أشو يا خاي، أشو كنت بتشتِغِل؟" فردّ صاحبي: "كنت موظّف (في سلك...)" فقال له الحاجّ الإدلبيّ فوراً وعلى البديهة، وكأنّه يعرف ماضيه: "أشو لَكْ خاي، انت لِسّعْ بِدّكْ عشر حجّات تينْيِه!!".. فانتفض صاحبي غضباً وقال: "وَلَكْ أنا أشرف وأنضف منّكْ ومن والديك"، واحتدم الجدال، وكادا أن يتماسكا بالأيدي، فقلت لهما: "يا إخوان، لا يجوز الجدال في الحجّ، وإلّا فسدت حِجّتكما"، ثم قلت للحاجّ الإدلبيّ: "يا أخي، ما لَكَ وما لنا؟!، رجاء اتركنا ولا تفسد علينا جلستنا وعبادتنا"، فردّ عليّ: "اسمع ايش يؤول!!، كان موظّف (في سلك...)، ويريد أن يسامحه الله على اِلّيْ لَطَشهْ وبَلَعهْ".

قابلنا مصادفة صحبنا السابقين، (أبو عمّار) ورفاقه، وتابعنا معاً مناسك الحج، بتْنا ليلة التاسع من ذي الحجّة في مسجد الخيف في منى، اضطجع الناس بالملايين في المسجد وحوله وفي الشِعاب والمنبسطات في وادي منى، أكبر فندق في العالم، مشهد فريد لا تراه العين إلّا في هذا المكان الفريد، تساوى فيه الجميع جنباً إلى جنب على الصعيد الطاهر، يغرق فيه المؤمن وسط أجواء نورانيّة من الخشوع والدعاء والتلبية، الجميع يتوجّهون إلى الله بين قائم يصلّي أو راكع أو ساجد، وبين رافع يديه يجأر بالدعاء، وبين باكٍ تائب يطلب العفو والغفران، هناك من تعب من الصلاة والدعاء، فاتّكأ يريح جسده المكدود من العبادة ساعة لينهض من جديد ويتوّجه إلى الله.

أخيراً كان يوم المغفرة يوم عرفات حيث يَنْضُو المسلم عنه ثوب الذنوب، ويعود نقيّاً طاهراً مبرّأً من الآثام كيوم ولدته أمّه، توجّهنا جنوباً إلى عرفات، في طريقنا أمام أكثر الخيام موائد من أطايب الطعام، وصاحب كلّ خيمة قائم أمامها، يرجو الحجّاج المارّين أن يكرموه، ويأكلوا من طعامه، أكلنا لقيمات من أكثر من مائدة تحت إلحاح أصحابها، وتابعنا طريقنا بسيّارة أجرة.

وصلنا ساحاتِ النور.. رياضَ العفو والرحمة.. أرض منبسطة جرداء، لانبت فيها ولا شجر، على يمينها مسجد النمرة، وعلى يسارها جبل الرحمة.. جبل النور، حيث وقف عليه أشرف الخلق، ليلقي على المسلمين بيانَه الأخير.. خطبةَ الوداع.. ويختم بها أقدس رسالة وآخر رسالة للبشرية.. وقد جلّل الجبلَ غطاءٌ بشري، تضيء شمس الضحى ثيابهم الناصعة، فيزداد ألقاً، يتوقون إلى ملامسة الحجارة التي تباركت بأقدام رسول الإنسانيّة، فيتسلّقون قمته بلهفة وفرح، وبين يدي جبل النور تمتدّ خيام الحجّاج جنوباً وشرقاً حتّى تلامس الأفق، قال أبو عمّار: علينا أن نفتّش عن مكان في ظلّ مسجد النمرة، فالحرّ سيشتدّ. بعد أن صلّى الجميع صلاة الظهر جماعة، تهلّل وجه الشمس، ومدّت ألسناً من شواظ، زجاجة ماء الصحة المستوردة لا تكفي إلّا شربة واحدة لكلّ منّا، نهضنا نبحث عن مصدر للماء، جماعات من الحجّاج تطوف مثلنا وتسأل عن الماء، وقفنا على ما يشبه البئر، له غطاء من الإسمنت وفتحة مربعة، ضلعها تقترب من ذراع، والماء على بعد مترين فقط، قال بعضهم: نحتاج إلى حبل ودلو، بدأنا نسأل ونفتّش عن حبل النجاة أو حبل الحياة، ألقى أحدهم حجراً في البئر، فانتشرت الرائحة من الماء الراكد، إنّه ماء المجاري القريب من مسجد النمرة، خاب الأمل، وهرب الجميع، وعدنا إلى زجاجات الماء المستوردة، نطفئ بها لعاب الشمس.

بعد صلاة العصر اتّجه الحجّاج إلى ساحة واسعة محدّدة، فمسجد النمرة ليس ضمن حدود عرفات، الملايين وقوف بين يدي الخالق العظيم، إنها سويعات ، تَتَفَتّح فيها أبواب الرحمة، فتُغسل الذنوب، ويُستجاب كل دعاء، الأيدي إلى الأعلى إلى بارئها، تكاد بخشوعها أن تلامس أبواب الرحمة. إنها بطاح عرفات، أقرب طريق بين الأرض والسماء، جوقات من التهليل والتكبير.. باقات من الحجيج حول بعضها بعضاً، تردّد دعاء واحداً ورجاء واحداً، القلوب واجفة، والعيون شاخصة.. يذهل المرء عن نفسه.. يحلّق في أطياف نورانيّة من الوجد والانعتاق.. لحظات من النشوة لا يتذوّق شهدَها إلّا من صَفَتْ نفسه، ورقّت روحه، وتسامى على كلّ محسوس.

بدأت الشمس تنحدر لتتوارى في خدرها، ثم ارتفعت (الله أكبر) عذبة شفّافة، تتهادى في الأجواء القدسية، تعلن أذان المغرب، فودّع ملايين الحجيج عرفات، ونفروا إلى المزدلفة، ليصلّوا فيها صلاتي المغرب والعشاء جمع تأخير في وقت العشاء، وليبيتوا ليلتهم فيها، ثم ليتمّوا مناسك الحجّ.

كما ذكرت سأكتفي ببعض المشاهد ممّا رأيت أثناء تأدية فريضة الحجّ عام ألف وتسعمئة وثمانية وسبعين، لأن وصف كلّ مشاهد الحجّ يحتاج إلى كتاب مستقلّ.

قلت: إن الحجّاج قد أَتَوا من كلّ بقعة من الأرض ومن كلّ بيئة، يحملون معهم عاداتهم وسلوكيّاتهم وطرائق معاشهم، فكان إهمال بعضهم للنظافة واضحاً بيّناً، رغم اهتمام المملكة الكبير بهذه القضية وتجنيد جيش من العمال والفنّيين، وتجهيز الأدوات والمبيدات للمحافظة على نظافة كلّ موقع من مواقع الحج- وما أكثرها- وقيامها بحملة إعلاميّة واسعة وبكلّ الوسائل، لإرشاد الحجّاج إلى المحافظة على النظافة.

كما أن تأمين المياه وبالتحديد مياه الشرب لم يكن كافياً، وبخاصّة في المشاعر وعلى جبل عرفات.

كان الله في عون المملكة، فرعاية الحجّاج وتأمين مستلزماتهم يحتاجان إلى جهود كبيرة مضنية، فحيثما يتوجّه الحجّاج يجب أن تؤمّن لهم كافة الخدمات، وما أكثرها وما أكثر حاجات الإنسان.

العودة إلى قوا

عدنا إلى قوا القرية الغافية منذ طفولة الحياة، والتي بدأ يداعب أجفانها الناعسة لألأء الحضارة، ويدغدغ مسامعها النائمة على صمت العصور هسيس الآلة المستوردة، فتتمطّى على مغريات العولمة ومنتجاتها، تأخذ القشور، وتكتفي بالقشور، فهنا آلة تسجيل يعلو صوتها، تزاحم زامر الحي الذي لم يعد يطرب الجيل الجديد، وهناك سيّارة يجعر محركها هازئاً بسفينة الصحراء الصابرة الآمنة التي تتلفّتُ حائرة، كمن خسر في الرهان كلّ ما يملك، تتلفّتُ وتقول: أنسيتم قول طرفة بن العبد فيّ:

أمونٍ كألواحِ الإرانِ نَسَأْتُها على لاحبٍ كأنّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ

هذه حال ناقة هزيلة رُبطتْ أمام بيتنا على بعد عشرين متراً، لا يحركونها من مكانها إلّا نادراً، يقدّمون لها ما تحتاج من علف وماء، فلم يعودوا بحاجة إليها إلّا في مَهامَّ قليلة، فنُبذَتْ ، وأُفرِدَتْ إفرادَ البعير المعبَّد، تلوّح برأسها، وتنظر إلينا- نحن جيرانها الأقربين- بعينين منكسرتين، وكأنّها تستنجد بمروءتنا كي نحررها من سأم الأيام وإهمال المُحبّين.

ومن طريف ما رووَا لنا أنّ أهل القرية اجتمعوا ليروا أوّل سيّارة تصل قريتهم، وقفوا مبتعدين عنها خائفين من صوتها –فربما كان صوت أوّل آلة يخترق آذانهم- عندما أطفأ السائق المحرّك وترجّل، وأنسوا قليلاً إلى هذا الحيوان المعدني الذي يركبه الإنسان، أسرع بعضهم وأحضر برسيماً، ووضعه أمام السيارة لتأكله، فلا شكّ أنها جائعة بعد رحلتها الشاقة في وادي الأحزان.

ضحى اليوم التالي سمعنا هرجاً وصراخاً، أشرفنا من النافذة الجنوبيّة، خُصٌّ (بيتٌ من القصب) شبّت فيه النار، الجميع رجالاً ونساء يحملون الجرار والأوعية البلاستيكيّة المملوءة بالماء، ويسرعون طائشين إلى الخصّ الذي تشتعل أعواده اليابسة كالكبريت، وألسنة النار تعلوه أمتاراً، لكنْ ما لبث الأمر أن قُضي في دقائق، لا تتجاوز الثلاث، فإذا هو كما يقال أثر بعد عين، رماد تذروه الرياح، أمّا مَنْ في داخله فليس أمامه إلّا لحظات حتّى يهرب، وإلّا فسوف تأكله النار فيما تأكل.

جاء شيخ القرية والمطوّع منصور وآخرون، عاينوا المكان، ثمّ اتّجهوا جميعاً إلى الخوبة، ليتقدّموا بطلب مساعدة إلى الأمير، ففي مثل هذه الحالات كما علمنا تقدّم الحكومة تعويضاً للمتضرر، مقداره ألفا ريال، قال لي منصور سرّاً: بعضهم يفتعل هذا الحريق في خُصّه إذا كان مهترئاً، يكاد أن يتهاوى، فيشعل النار فيه، ويدّعي أن الحادث قضاء وقدر، حتّى يحصل على التعويض، والحكومة تعرف ذلك، ولا تبخل بالمساعدة.

حمِدنا الله أنّنا لم نستأجر بيتا من القصب، صحيح أن بيت القرميد لا يمنع الحرارة، لكنه آمن من عدة جهات، أوّلها أنّه لا يشتعل فجأة، فتأكله النيران بمن فيه، وثانيها أنّ كوخ القصب المخروطيّ المنصوب من أغصان الأشجار وأعواد الذرة البيضاء، يُطلى حتّى منتصفه من الخارج وربما من الداخل أيضا بالطين، وعند ذلك يكون بين الجدارين مستعمرات نموذجية للعقارب وأنواعها الصفراء والسوداء، والعناكب وفصائلها القاتلة، والصراصير والنمل وأسرابهما، وحشرات وزواحف تعجز أن تجد لها أسماء في كتب تصنيف الحشرات، وربما كان هناك جحور للأفاعي، ويجري في غياهب هذه الجدران الصراع على البقاء، والانتصار حتماً للأقوى حسب قوانين العولمة، وربّما امتدّ الصراع إلى خارج الجدران، وشارك السكّان الآدميون في المعركة، لكنّ الجبهة الأضعف في هذا الصراع هم الأطفال، وبخاصّة الرضّع الذين لا حول لهم ولا مقاومة، ففي الليل البهيم تخرج العقربة أو الزاحفة للتنزه حرّة نشيطة، فيغريها اللحم البضّ، تنشب شوكتها في طراوته، تعقبها صيحة، ثمّ تخمد الحياة في الجسد الضعيف إلى الأبد.

في أغلب الصباحات نستيقظ على عويل مخنوق، سألت الفرّاش مرّة عن سبب هذا البكاء، فقال ببرود ولا مبالاة، وهو يلوي شدقه، ويقلّص إحدى عينيه استخفافا: (بزر ماتِنْ) أيْ طفل مات- يقولون هنا للطفل أو الولد (بَزْر)، ويجمعونه على بْزوره، وهو النسل، وهو من الفصيح، كما يضيفون للفعل الماضي نوناً، فلم أعرف ماذا يقصدون بها؟، أهي نون

النسوة أم نون التوكيد التي لا يجوز أن تلحق الفعل الماضي، أم ينوّنون الفعل كما ينوّن الاسم؟- فالأمّ الثكلى تبكي فقيدها وحدها، حتماً بقلب كسير، فلا أحد يشاركها فجيعتها، لأنّ العادة تخفّف من المصيبة، فقد اعتاد الجميع على الموت صباح مساء. صادف أنْ سألت امرأة في الأربعين من عمرها: كم بزراً عندك؟ أجابت اثنا عشر، قلت لها: أين هم، إني لا أرى أحداً منهم؟!، فابتسمت ابتسامة بائسة وقالت: في المَجَنَّة، والمَجَنَّة تعني عندهم المقبرة، وهي في اللغة المكان الذي يُستَر به، فأصابتني رعدة وخوف، كان المسنّون يقولون لنا: يا أستاذ أرضنا تأكل أولادها. فالناس هنا ليسوا بحاجة إلى وسائل تحديد النسل، أو زيارة عيادات الإخصاب، فالطبيعة هنا- في هذه الأرض المعجزة- تتكفّل بهذه المهمّة، وتخفّف عن الأبوين عبء مسؤولية كثرة الأولاد.

أرى هؤلاء المسنّين رجالاً ونساء، يدبّون كالأشباح، لم يبق من أجسادهم إلّا العظم المعروق والجلد المحروق، فأعجبُ وأتساءلُ: ألم يقع أحدهم طوال ثمانين حولا بين فكّي حشرة فتاكة؟ ألم يهاجمه وحش ضار؟ ألم يتعرض لهول من أهوال هذه المقبرة الكبيرة؟!، فلا أجد جواباً إلّا صوت حكيم الجاهليّة يتردّد من وراء العصور:

رأيتُ المنايا خَبْطَ عشواءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ ومَنْ تُخطئ يُعَمَّرْ فيَهْرَمِ

أَلَا ما أصْدَقَكَ يا بن أبي سلمى!.

كنّا عائدين مساءً من زيارة بعض زملائنا في قرية بعيدة نوعاً ما، خشينا أن يفاجئنا الليل، فأخذنا نعبر الحقول التي لا تدبّ فيها حياة، وتناثرت فيها بعض الأشجار العارية والقصب اليابس، لنختصر الطريق الترابيّ الملتويَ، انتابنا شعور بالخوف، ماذا لو صادفْنا وحشاً يكمن لفريسة، أو حيّة جائعة تنتظر سانحة- والحيّة في هذا المنفى حيّة، ويصدق فيها زعم الخرافات: "سُمِّيَت حيّة لأنها تُعَمَّر دهوراً ولا تموت"، جاءنا وكيل صاحب البيت مرّة من قريته القابعة شمال قريتنا بين الصخور الشامخة والجلاميد العملاقة، وقال: خرجت من بين الصخور حيّة جبّارة، فلم يستطع كل أبناء القرية قتلها إلّا بعد أن أفرغوا في رأسها كل طلقات بندقيّة أوتوماتيكيّة، كانوا قد احتفظوا بها من أيام الحرب بين الإمام البدر والسلال- فرُحنا نركض فوق تخوم الحقول العالية شبه مذعورين، وقد اقترب المغرب، فشاهدنا رجلاً، لولا أنه يتحرك ببطء ويحتطب، لظنّنا أنّه شجرة يابسة من أشجار الحقل أو جذعا أجرد، ولو كنّا في عصر الأساطير، لقلنا: إنّه جنيّ أو آدميّ مسحور، كان كالمومياء هزالاً وشكلاً ولوناً، فقد أكل هو من الدهر وشرب ما شاء، وربّما كان الدهر قد ملّ منه، وانصرف عنه، أو نَسِيَه؛ ألقينا عليه السلام لنتأكّد من أنه آدميّ حيّ، فردّ علينا دون أن نسمعه، عجباً ألا تخاف هذه المومياء من عاديات الوديان، وبينها وبين القرية أكثر من كيلو متر؟!، إنها أرض العجائب.

جانب بيتنا أرض صخرية مرتفعة قليلاً، فيها فجوات كثيرة، نرى الضباب والسحالي تخرج وتدخل منها وإليها سريعة، ومع الأيّام اعتدنا عليها واعتادت علينا، فلم يعد أحد يخاف من الآخر، وكأنّنا عقدنا فيما بيننا اتّفاقاً أو هدنة، بنوده احترام حقوق الجار وإقامة السلام العادل والحياد الإيجابي، وربّما جاء ضبّ أو سحليّة- تطبيقاً لهذه الاتّفاق- لزيارتنا في غرفتنا، ليتعرف علينا عن قرب- نحن جيرانه الجدد- وليرحب بنا وبأبو عماد خاصّة.

قلت سكنّا بيت القرميد الآمن الواضح للعيان، كنت أقرأ خارج البيت ساعة الأصيل المضرّج بحمرة الغروب، وأبو عماد في الداخل يكتب رسالة إلى زوجته، وأظنّه كان يحمّلها أشواقه المتوثّبة، وربّما كان يكتب لها قصيدة شعر، وإذ به يخرج كمن اشتعلت النار في ثيابه، يريد أن يتكلّم، فلا تصدر عنه إلّا أصوات مبهمة، راعني منظره، قمت إليه، وأنا أحدس أنه قد أصابه مسٌّ، ثم رأيت ضبّاً كبيراً، يتجاوز طوله نصف متر- ويقولون له هنا (بَرَمَة)- يخرج من أسفل باب الغرفة هارباً، فعرفت سبب ذعره، ورحت أهدئ روعه، وأقول له: لا تخف لا تخف.. برمة برمة..، بعد أن ثاب إلى رشده أخبرني أنّه كان متمدّداً على السرير، يكتب- ويحلق في عالم الأحلام- فسقط في حضنه من السقف ضبّ، فالضبّ يستطيع أن يمشي على سقف من الخشب، فظنّه لكبر حجمه أول وهلة أفعى، فانقلب رأسا على عقب، وخرج يطلب النجاة، فعرفنا حينها ألّا مكان آمناً في مقبرة الأناضول.

اليوم افتتاحُ المدارس، بدأ الطلّاب يتوافدون من مختلف الأعمار، فهو العام الثاني من عمر هذه المدرسة الابتدائيّة، طبعاً الطلّاب ذكور فقط، ففي القرى الصغيرة كقريتنا- التي يبلغ عدد سكانها حوالي / 700 / نسمة- لا يوجد مدارس للإناث، فتبقى الفتيات خارج عالم الحرف، يُقبَل فيها الطلّاب مهما كانت أعمارهم، ففيها طلّاب من السنّ السادسة وحتّى السادسة عشرة، والأهالي يحرصون على تعليم أولادهم، فلا يتأخر أحد عن إرسال ابنه إلى المدرسة، وفيها شعبتان (فصلان) للصف الأول، وشعبة (فصل) للصف الثاني، وعدد الطلّاب في كل شعبة يقارب العشرين، يُقْبِل الطالب من بعيد، وهو يلبس الدشداشة البيضاء، وعلى رأسة قبعة بيضاء أيضاً، وينتعل (الزنّوبا)، وتتدلّى من يده حقيبة (السمسونايت) السوداء من أحدث طراز، يدهشك منظرهم أوّل الأمر خصوصاً عندما اصطفّوا لتحيّة العلم، حيث يقترن التليد بالطريف، الموروث بأحدث المستحدث، لي خبرة في تعليم الصفّ الأوّل، فأخذت إحدى الشعبتين. دخلنا غرفة الصفّ الكبيرة، كان لكلّ طالب طاولة مستقلّة وكرسيّ حديثان أنيقان من صنع الصين، وكانت السبّورة وطاولة المدرّس من الخشب ومن صنع الصين أيضاً، وُزّعَت الكتب والدفاتر مجاناً، وبدأ العام الدراسي.

لم يكن في المدرسة أيّ وسيلة تعليميّة أو وسيلة مساعدة للمدرّس على القيام بمهمّته سوى السبّورة والحَكَكِ (الطباشير)، وعليه أن يتدبّر أمره، فليس أمامي إذن إلّا الرسم ألجأ إليه لإيضاح الفكرة أو تجريد الحروف، وكنت آخر إنسان يحقّ له أن يُمسك الريشة أو القلم ليرسم، فقد حرمتني الحياة من هذه الموهبة الجميلة، أردت مرّة أن أُجرّد حرف التاء المربوطة، فوضعت حقيبة (سمسونايت) على الطاولة، وأخذت أرسم بالمسطرة والفرجال باذلاً جهدي لتكون الرسمة مطابقة للحقيبة تماماً، وقد استخدمت طريقة المنظور، وظلّلْتُ لوحتي الفنيّة التي أبدعتها، ثمّ وقفت بعيداً معجباً بها، وقلت للطلّاب مباهياً: ما هذه الرسمة؟!، فصاحوا بصوت واحد: هذه جَرّة يا أستاذ!، صمتُّ قليلاً وأنا أتأمّل لوحتي الخالدة، ثمّ قلت لهم: أحسنتم.. أحسنتم..، وكتبت تحتها كلمة جرّة، وبدأتُ أجرّد التاء المربوطة!!.

في الفرصة الأولى وزّع المدير- وهو زميلنا القديم في المدرسة- صناديق التغذية على الطلّاب، في كل صندوق علبة حليب وقطعة جبن وبعض قطع البسكويت وحبّات من الفول السودانيّ ومنديل كحولي معطَّر لتنظيف اليدين بعد أكل الوجبة، وكلّها مغلّفة بشكل جيّد ومُفرَّغة من الهواء، والصندوق من الكرتون المغلّف أيضا بشكل، يحميه من التمزق، وجبةٌ صحيّة مدروسة، تكفي غذاء صباحيّاً للطالب، تُقدّم له كلّ يوم في الفرصة الأولى، كانت بعض الأمّهات الفقيرات يأتينَ لأخذ الوجبة من أبنائهنّ وإعطائهم اليسير منها.

يجب أن يكون مخزوناً في المدرسة من صناديق التغذية ما يكفي لمدّة عدّة أسابيع، قبل شهر من نهاية العام الدراسيّ جاءنا أمر شديد التحذير، يطلب إخراج المناديل الكحوليّة من صناديق التغذية وإحراقها فوراً وبحضور كلّ المدرّسين والعاملين في المدرسة، والجميع مسؤولون عن تنفيذ هذا الأمر، نفذّنا الأمر بسرعة ودقّة، وعندها أدركنا، لماذا يشتري الطلّاب الكبار هذه المناديل الكحوليّة من الطلّاب الصغار!.

بدأ العام الدراسيّ وبدأت الأيام تتوالى كسولة ملولة، وبدأ شوقنا إلى الأهل ينشط ويشتدّ، كنا ننتظر يومي السبت والثلاثاء موعد البريد، لا نستطيع أن نذهب في هذين اليومين من دوام المدرسة إلى الخوبة، فكان في إحدى القرى المجاورة رجل فلسطينيّ في خريف العمر، جاء مَحْرَماً مع ابنته المعلّمة، يأتي برسائل المدرّسين من الخوبة ،ويطوف على القرى المجاورة، يوزّعها عليهم في هذين اليومين، كنت أترك كلّ ساعة غرفة الصفّ، وأنظر من فوق تلّة المدرسة، أستشرف طريق الخوبة، علّ هذا الرجل الطيّب يطلّ حاملاً معه أخباراً تنقع الغلّة.

أوّل قدومنا إلى جيزان في بداية العام كان زملاؤنا المخضرمون الذين سبقونا إلى التدريس في المملكة، قد لفتوا انتباهنا إلى أنّ المفتّشين يزورون المدارس عشرات المرّات، ويطلبون من المدرّسين أموراً شاقّة تعجيزيّة من جداول إحصائيّة ومحصّلات ونتائج الطلّاب وملاحقة البرامج والتعليمات وغيرها، مرّ العام الدراسيّ بكامله، ولم يسعدْنا أحد بطلعته المشرقة، ولم يزر المدرسة أيّ مسؤول أو موجّه تربويّ أو مفتّش، كانوا فيما يبدو يشفقون على أنفسهم من عبور وادي

التيه اللولبيّ من المسارحة إلى الخوبة، الذي تتغيّر تضاريسه بعد كل سيل يتدفّق من جبال اليمن، فهو أيْ الوادي مخصّص للمدرّسين الوافدين أمثالنا، ليتدرّبوا على فنّ إتقان ألعاب السيرك.

دعانا أحد جيراننا الميسورين إلى منزله لسهرة قصيرة وشرب الشاي، جلسنا داخل غرفة مبنيّة من الحجارة على القعّادات، وفي وسطها مَجْمَر نار، عليه دِلال القهوة، تتصاعد منها روائح الهال والمنكّهات، وفي الزاوية صينيّة كبيرة مترعة بحَبِّ البنّ مع حبّ الهال على شكل هرم، وفي الزاوية المقابلة صينيّة أخرى مترعة بقشر حبّ البنّ- فهم يشربون مغليّ قشر البنّ أيضاً- بعد أن شربنا القهوة الصفراء التي تشبه قهوة الأمير في الخوبة، والمشبعة بأنواع المنكّهات من الهال والزنجبيل وغيرها التي لا نعرف أسماءها، جاء المُضيف بصينيّة عليها أكثر من ثلاثين كأساً، وقد ملئت جميعها بمَغليّ الشاي، تتصاعد منها الأبخرة الساخنة، تقدم إلينا بالصينيّة، فأخذ كلّ منّا كأساً، وبقي ما يقرب من خمس وعشرين كأساً مملوءة ساخنة، همست في أذن منصور بجانبي: لمن كلّ هذه الكؤوس؟، فردّ بصوت خفيض: هذا احتفاء بكم، فكلّما كان الضيف عزيزاً على صاحب البيت، أكثر له من الكؤوس المملوءة، قلت: لماذا لا يأتي بإبريق الشاي، وهنا نملأ ما نشاء؟، ردّ: من ضروب الكرم عندنا أن نملأ للضيف أكبر عدد ممكن من الكؤوس، شربنا الكأس الأولى، فقال لنا مُضيفنا: تفضّلوا بشرب الثانية، شربناها، وقد بردت قليلا، ثم ألحّ على الثالثة والرابعة، حتّى أصبحت باردة.

صاح أحدهم من خارج البيت (داحش) (يا داحش)، فردّ مُضيفنا تفضّل يا أبو (مرازِم)، وقام للترحيب به، بعد أن جلس الضيف قليلاً، أخرج من وسطه باقة تشبه في حجمها وشكلها باقة النعناع، عرفنا أنّها (القات) الذي سمعنا عنه كثيراً، نزع ورقة تشبه ورقة البرتقال بحجمها وسمكها، وضعها في فمه، أخذ يمضغها متمهّلاً دون أن يبلعها، وتناول كأساً من الشاي، ورشَفَ منها رشفتين أو ثلاثاً، واستمرّ بالمضغ، ثمّ أشعل سيجارة وتناول ورقة أخرى وتابع المضغ، ورشْفَ من الشاي، استمرّ على هذه الحال مدّة، كان يجمع في شدقه المنتفخ كرة الأوراق التي لم يبق منها إلا الألياف، فقد امتصّ كلّ النسغ والمادّة الخضراء.

دفعني الفضول إلى تذّوق ورقة من القات، طلبت من الضيف واحدة ، مضغتها، لم أجد لها طعماً مميّزاً، فهي بطعم الحشيش الأخضر أو ورق الشجر العادي، ثمّ بدأ صاحب البيت يشاركه مضغ القات، عندما قمنا للانصراف قال لنا صاحب البيت: سنبقى (نُخزّن) أيْ نأكل القات طوال الليل، فإذا أحببتم السهر فأهلاً بكم، اعتذرنا وانصرفنا، في الطريق قال لنا منصور حزيناً:- فمنصور لا يدخّن ولا يُخزّن- إنّ القات مادّة منبّهة، سيبقي (داحش) وضيفه يقظين حتّى آخر الليل، ثمّ ينامان حتّى مساء الغد، وفي اليوم الثاني تبدأ جولة ثانية من التخزين، وهكذا يضيع الإنسان، ويفقد ماله، وينقطع عن عمله، وتُدمّر حياته وصحته، وكلّ من يُدمن على القات من الرجال يصاب بمرض (السيلان)، هذا داؤنا في هذه البلاد، ثم سكت، كنت قد سمعت، أن المُصلّي- وبخاصّة في القرى اليمنيّة- يخلع سرواله الداخليّ قبل دخوله حرم المسجد، ويضعه جانباً في ساحة المسجد لأنه ملوث بآثار السيلان؛ إذ لا تجوز الصلاة إلّا إذا كانت ثياب المصلّي طاهرة، وكثيراً ما تختلط السراويل بعضها في بعض، فلا يعرف أحدهم سرواله من سروال غيره. وقد ذكر (إبراهيم عبد الغني الصوالح) في مقالة عن القات في مجلّة بناة الأجيال السوريّة العدد 74 صفحة 155 وكما حدثني الدكتور صلاح كزّارة الذي أُوفِد إلى اليمن للتدريس: أنّ في باحة كلّ مسجد في اليمن بركة ماء، يُقال لها (المَخاضَة)، يدخل المصلّي، ويلقي بنفسه وهو يرتدي كامل ثيابه في بركة الماء، ثم يخرج ويتوجّه إلى الصلاة نظيفاً جسداً وثياباً.

تابع منصور: هل تعلمون أن ثمن باقة القات أكثر من مئة ريال، القات يُهرّب من اليمن، والحكومة هناك تسمح بزراعته والمتاجرة به، بعد أن أُقتلعت أشجار البنّ والكرمة والتين، وحكومة السعوديّة تحاربه بشكل صارم، فيصل حكم بائعه أو المُتاجر به إلى السجن عشرين سنة، ومع ذلك لا يرتدع البائعون ولا المتعاطون.

لكنْ في الآونة الأخيرة بدأت في اليمن حملة قويّة على القات وزراعته والمتاجرة به، لا لأنه مُحرَّم، أو لأنه يضرّ بصحة الإنسان الجسميّة والنفسيّة فحسب، بل لآثاره الاجتماعيّة والاقتصاديّة أيضاً، فالقات يسلب الأسرة دخلها كاملاً، ولا يترك لها ما يعينها على أعباء الحياة، وربّما انتشرت الرشوة في اليمن- كما ذكر لي الدكتور صلاح كزّارة- لتأمين

القات، فيقول لك الموظف: ثمن القات، كما يقول لك الموظف عندنا في سوريا: ثمن فنجان قهوة؛ لذلك تحاول الدولة والمنظّمات الاجتماعية محاربة القات، لأنّه يدمّر الأسرة ماليّاً، ويتركها لوحش الفقر والعوز.

كلّ من يخزّن القات يحتاج إلى أن يشرب كلّ ربع ساعة جرعة من الماء البارد أو الشاي بقدر فنجان قهوة، ومن الطريف أن الصينيّين- مردة العصر وشياطين الصناعة- درسوا هذه الظاهرة، فعمدوا إلى صنع (ترمس) (حافظ للسوائل الحارّة والباردة)، يَصُبّ بضغطة واحدة الكميّة التي يحتاجها مخزّن القات، وقد دخل هذا (الترمس) إلى كلّ بيت يمني.

نرى ليلا مهرّبي القات، رجلين أو ثلاثة، يأتون من أعلى القرية من بين الصخور، يمرّون جانب غرفتنا، وقد انتفخت ثيابهم بالقات، يسيرون حفاة كأنّهم الأشباح، لا يهابون شيئاً، سلاحهم الخناجر التي تلمع وسط الظلام وقلوبهم التي قدّتْ من صخور الجبال. في النهار نرى دوريّات راجلة من رجال الأمن السعوديّ، تجوب المنطقة بحثا عن مهربي القات، ولكنْ ما الذي يضبط هذه الحدود الشاسعة الموحشة، أو يمنع هؤلاء الرجال الأشدّاء المغامرين عن ممارسة تجارتهم، وجني الأرباح الخياليّة من ورائها؟!.

تذكّرت عندما كنّا نمضي ليلة التروية في مسجد خيف في منى قبل التوجّه في اليوم الثاني إلى الوقوف في عرفات، كان بجانبنا رجل يمنيّ هادئ، يبدو عليه الاتّزان والوقار، بعد حديث طويل أخبرنا أنّه رئيس محكمة النقض في صنعاء حسب ادعائه، دار الحديث بيننا منوّعاً إلى أن جئنا على ذكر القات والخلاف حوله، وهل هو كالخمر في حكمه وتحريمه؟، فقال لنا بهدوء وثقة: القات غير الخمر، فالخمر في اللغة ما خامر عقل الإنسان، أيْ داخله ما يُفسده، مثل خامرني الشكّ أيْ داخلني، أو الخمر ما يستر العقل، ويخفيه، وهو من الخمار الذي تغطّي به المرأة رأسها، أمّا القات فإنّه يوقظ العقل، ويُنبّه الحواس، ويُنشّط الإنسان، فهو لا يُقاس بالخمر، ولا يشابهه، وبالتالي فهو غير محرّم، وشُربه نزهة للعقول وأنس في الوحشة، وراح يعدّد فوائده وميزاته الرومانسيّة. وكان الشاعر إبراهيم الهنديّ قد وصف القات بالزمرّد، يذوب بين لآلئ فم المتعاطي (آه لو ترون جمال فم المتعاطي، وبين أسنانه المتباعدة اللؤلئيّة مسحوقُ التبغ!!):

أُشَبِّهُ ثَغْرَهُ والقاتُ فيـــهِ وقَدْ لانَتْ لِرِقَّتِهِ القلوبُ

لآلئُ قدْ نَبَتْنَ على عقيقٍ وبينهما زُمُرُّدَةٌ تَـــذوبُ

كان هذا رأيَ رئيس محكمة النقض وقناعته في القات، وحتماً هو رأي وقناعة كلّ أبناء اليمن الذين يخزّنون القات، ويتاجرون به، حتى إنّهم يسمّونه، (بترول اليمن)، لأن أرباحه مضمونة وفاحشة، وقد حدّثنا بعض أبناء قريتنا: أنّ ثمن باقة القات في جدّة أو الرياض يصل إلى ألف ريال، أيْ إلى عشرة أضعاف ثمنه هنا، لأنّه يهرّب بصعوبة، وتهريبه مغامرة كبيرة، تُعَرِّض صاحبها إلى السجن عشرين سنة كما ذكرت، وقيل: إنّ القات يصل إلى تلك المناطق البعيدة جافّاً يابساً، ومع ذلك يشتريه عشّاقه ويخزّنونه، وهو جاف يابس.

أمّا وقد جئت على ذكر السجن الذي لا يبالي بأهواله المهرّبون، فهو عندهم درك من أدراك جهنّم، دخلنا أوّل العام عندما كنّا في جيزان إلى مديريّة الأمن لإكمال الأوراق الثبوتيّة، كان بناء المديريّة شأن كلّ الإدارات الرسميّة هنا مشاداً من القرميد الأسمنتيّ الذي ينفث لهباً وقت الظهيرة، مررنا أمام غرفة في زاوية مهملة، عليها قضبان من الحديد، وقد تعلّق السجناء بالقضبان بعضهم فوق بعض، يستجدون نسمة هواء، وجوههم زرق، وعيونهم تصرخ، لست أدري كيف انتابني شعور بالخوف، ماذا لو ارتكبت خطأً، ووُضعت داخل هذه الغرفة الفاجرة، لا شكّ أنّني سأموت داخلها خنقاً، وقفنا ننتظر للتوقيع على بعض الوثائق، اتّكأت على جدار تحتضنه من الخارج شمس الضحى بلهفة العاشق، أحسست بلذعة حارقة، وكأنّني اتّكأت على سيّارة تقف تحت شمس الصحراء.

في تلك الفترة وفي سبعينيّات القرن الماضي لم تكن المخدّرات منتشرة في المملكة السعوديّة، ولم يسمع أحد بها قط، على أقل تقدير في منطقتنا جيزان، ثم استطاع تجّار المخدّرات أن ينفذوا إلى قلب المملكة لترويج سمّهم القاتل، حيث الأسواقُ الكبيرة مفتوحةُ، والقدرةُ الماليّة على شراء آفةِ العصرِ الفتّاكةِ متوفرةٌ، في إحدى السهرات التي تضمّ أحيانا

بعضاً من رجال القرية، جاء ذِكْرُ مدير مدرسة (الخوبة) الإعداديّة، وهو من أبناء هذه المنطقة، قالوا: إنّه مهمل واجباته تجاه مدرسته، يأتي متأخّراً عن الدوام، وربّما لا يحضر مطلقاً يوماً أو يومين، رأى بعضهم أنه مدمن على (تخزين) القات، لكنّ رجلاً مسنّاً انتفض غاضباً وقال: إنه يشرب (قارورة)- ويعني بذلك الخمرة- يأتيه بها المهرّبون من اليمن. استعاذ جميع أبناء القرية الحاضرون بالله من شرّ الخمرة، ومما يفعل هذا الزنديق الذي يتعدّى حدود الله، تابع الرجل المسنّ: إنّ مدير المدرسة يفعل ذلك دون خوف من أحد، لأنّ بعض المسؤولين يأتون إليه ليلاً، ويسهرون معه.

في جلسة أخرى جمعتنا مع بعض المدرّسين من القرى المجاورة، قال أحدهم:- وأظنّه يتعاطى الخمرة في بلده- إذا أراد أحدكم صنع الخمرة، فعليه أن يفتح علبة بيرة (جعة)- والبيرة تُستورد في السعوديّة دون كحول، وتوصف للذين يعانون من مشكلات الرمل والحصى في الجهاز البولي- ويضع داخل العلبة ملعقة من السكر، ثم تُترك في الشمس ساعة أو أكثر، فتحدث فيها تفاعلات كيميائيّة، وتتحوّل إلى خمرة. انتفض المتزمّتون، وعلى رأسهم الأستاذ حسن، يسفّهون هذا الكلام، ويلعنون الخمرة وشاربها، أعلمني أحد المدرّسين فيما بعد أنّه جرّب تحضير الخمرة بهذه الطريقة عدّة مرّات لكنّ العمليّة لم تنجح.

الضبع

في الساعة العاشرة صباحاً جاء السقاء بجرار الماء وهو يلهث، قال: (جعيري) أيْ ضبع هاجم امرأة في الوغرة، لكنّ رجال القرية قتلوه، رأينا من أعلى القرية حيث تطلّ المدرسة، تجمّعاً للأهالي، أخرجْنا الطلابَ وسرنا معهم لنريهم الضبع، منظرها بشع، بشعرها الرماديّ الخشن وذيلها الضخم، وفمها المُشرَع عن أنياب صفراء طويلة، طول الناب خمسة سنتمترات، ومخالب مسنونة معقوفة، إنّها وحش حقاً، ليس كما كنت أتخيّلها في القصص وفي حكايات جدّتي.

كانت تلك المرأة- كما علمنا بعد ذلك- تستحمّ مع أولادها العراة في الوغرة، وقد كشفت نصفها الأعلى على عادة أبناء المنطقة، جلست سعيدة بفرحة أولادها وعبثهم بالماء، فإذا بها وجها لوجه أمام وحش ضارٍ، يريد أجساد صغارها الطريّة، وثبتْ إليه نمرةً، تدفعها غريزة الأمومة العجيبة، اشتبكتْ معه في معركة ليس فيها أيّ وجه للتكافؤ، انطلق الأولاد يتصايحون، وهم يركضون نحو القرية، قضمتْ الضبع إصبعين من يد المرأة اليمنى، وشقت بمخالبها الحادّة أعلى صدرها، وتركت جروحا تدمى في وجهها وجسدها شبه العاري. من حسن حظّها أنّ الرجال كانوا يعملون في الحقول، تنبّهوا إلى صراخ الأولاد وزعيقهم، فنفروا بالفؤوس وآلات الزراعة، يصدّون عن المرأة شراسة هذا الوحش، وظلّوا يطاردونه، حتّى أردوه جثّة هامدة وسط القرية.

قال الراسخون بمعرفة هذه المنطقة: إنّها ضبع أنثى يافعة مَشْبوقَة- مع أن الشَّبَقَ صفة للذكورة فقط- ضلّت عن ذَكَرها، فخرجت فاقدة صوابها، تبحث عنه في وضح النهار- وهي لا تخرج إلّا في الليل- وقد نبّهوا أهالي القرية ألّا يناموا هذه الليلة خارج بيوتهم أو أكواخهم، لأن ذَكَرَها سيبحث عنها ليلاً، وتهديه إليها رائحتها التي تعلق بكلّ شيء لامسته.

سألت مختار القرية الذي تجاوز التسعين من عمره:

ـ من أين جاءت هذه الضبع؟.

أجابني بلا مبالاة، وكأن الأمر أكثر من طبيعي:

ـ الوادي مليء بالوحوش أمثال الضبع، لكنّها نادراً ما تهاجم الإنسان.

قلت:

ـ وما الذي يمنع من أن نكون من صيد هذه الوحوش المشبوقة في مرّات قادمة؟!.

ردّ ضاحكاً:

ـ لا تخف يا أستاذ.. أنت رجل!.

قلت له:

ـ رجلٌ عارٍ من الثياب.. أعزلُ من السلاح ..يغطّي الصابونُ وجهَهَ وعينيه.. ويواجه ضبعاً مشبوقة، والله لم يفعلها عنترة أبو الفوارس!.

في المدرسة دار الحديث حول حيوانات المنطقة، فقال منصور:

ـ عندنا في هذه البلاد كلّ أنواع الحيوانات والوحوش، ولكنّ أخطرها على الإطلاق هو النمر.

قاطعه أحد الزملاء:

ـ ويوجد نمور أيضاً؟!.

تابع منصور مبتسماً:

ـ نحن لا نخاف إلّا من النمر، يهاجم بسرعة البرق، يضرب واحداً بمخالبه القويّة جداً ويهرب، وقبل أنْ نتمكّن من سحب الجريح إلى داخل البيت يعود النمر ثانية، ويضرب شخصاً آخر وهكذا.

قلت له:

ـ زادك الله علماً يا سيد منصور!، زدْنا من كنوز معلوماتك!..

قضينا ليلة طويلة بائسة، ونحن ننتظر العاشق الضالّ، سدَدْنا الباب من الداخل بالسريرين معاً، كنّا نستيقظ لأيّ صوت أو نأمة، مهما كان مصدرها، نمنا، ونامت إلى جانبنا سكاكين المطواة المشرعة استعداداً لأيّ طارئ.

مضت ليلتنا بالسلامة، وانقطعنا بعدها عن الاستحمام في الوغرة، لكنّ ذهاب الناس المتكرّر إليها شجّعنا على العودة، كنّا نذهب مسلحين بالعصيّ وسكاكين المطواة، يستحمّ اثنان على عجل، ويقف الآخران حارسين، ومع توالي الأيام نسينا قصة الضبع، وعدنا إلى سيرتنا الأولى، خصوصا بعد أن رأينا بعض الطلّاب ولم تتجاوز أعمارهم العاشرة، يأتون إلى المدرسة من القرى المجاورة صباحاً، ويعودون ظهراً، يمرون بين الصخور الضخمة وتحت الأشجار البريّة المتشابكة الأغصان مأوى الوحوش دون خوف.

عُدنا إلى رتابة الأيّام وتشابهها وجفافها، اشتدّ الحرّ يوماً، وأظنّه تجاوز الخمسين درجة مئويّة، هربت من أتون الغرفة القرميديّة، لتستقبلني الشمس الغاضبة خارجها، فلفح وجهي زفرات من سعيرها، فكنت كما يقول المثل "كالمستجير من الرمضاء بالنار"، جلست أزجي الوقت الخانق بكتابة رسالة إلى زوجتي التي كما ذكرت تركتها بعد أشهر قليلة من زواجنا، وهي حامل، لم أستطع أن أكتب سطراً واحداً، لعنت الغربة والحاجة التي أجبرتني على ترك كل شيء في بلدي الجميل، والمجيء إلى أرض السعير، مرّ بجانبي أحد الجوار، واسمه منصور، وهو غير منصور الفرّاش، قلت له وأنا أريد أن ألتمس عنده العزاء وأخفّف عن نفسي الضيق والضجر: "آه يا منصور، الغربة صعبة". فرفع أرنبتي أنفه وقال بلؤم: "أنتم جيتم من أجل الريالات، فلماذا تتشكّون!،" أحسست بكبّة من الشوك تندسّ في حلقي، أردت أن أرد عليه، ولكن ما فائدة ذلك، ونحن كما يقال في عقر دارهم.

منصور هذا من الأخدام السود، أيْ من الطبقة الثالثة في ذلك المجتمع، وجهه كالغراب الأسحم، لا عمل له، نراه دوماً يتبوّأ أعلى مكان في القرية، وخصوصاً مرتفع المدرسة، يمضي أيّامه في النظر إلى الآفاق البعيدة ساهماً شارداً، وبين الحين والحين يمسح بنظراته الحادّة القرية الهامدة. بيتنا جانب المدرسة يتألّف من غرفتين، نسكن إحداهما، ونضع أمتعتنا في الثانية، مرّتْ بين غرفتينا فتاتان تركضان، فأهل القرية لا يمرّون من بين غرفتينا، كنت متّكئاً على سريري وكذلك أبو عماد، نكتب ونقرأ، فإذا بمنصور هذا يندفع كالقذيفة داخل غرفتنا مضطرباً متسارعَ الأنفاس، ظنّ أنّ الفتاتين قد دخلتا غرفتنا، وأراد أن يضبطنا بالجرم المشهود، ويثبت لأهل القرية أنّ جلوسه كالديك على رأس كل قمة له مبرراتة وضروراته، فوجئ بأنّنا وحيدين هادئين ساكتين، نقرأ ونكتب، لم يعرف كيف يتصرّف، ولا بماذا يبرّر دخوله الأرعن، صمت قليلاً، فقلت له: "أهلاً بك، لقد فاجأتنا، ظنّنا أنّ أمراً خطيراً قد حدث!،" شعر بالحرج والخجل، وبرّر دخوله بأنه يريد أن يشرب من مائنا (المخمّد)، علّقت على كلامه: "أهلاً بك في كلّ وقت". أخبرْنا منصوراً الفرّاش بما فعله ذلك الأحمق، فقال لنا: حاولوا دوماً أن تتجنّبوه .

في شمال القرية تلّ كأنّه نصف كرة، اعتدنا أن نجلس على قمته في ساعات الأصيل، نتأمّل ما وراء الأفق البعيد البعيد.. حيث مضارب أحبتنا، جلسنا ذات أصيل وتشرين الثاني يودّعنا، وسوط الحرّ لم يتعب بعد، رأينا رجلاً مسنّاً، يلبس معطفا- يقولون للمعطف كوت، اللفظة الإنكليزيّة عينها- قلت له: يا قحم (القحم عندهم الرجل المسنّ)، لماذا تلبس معطفاً، أجابني: (بَرَاد.. بَرَاد) أيْ بَرْد بَرْد.. في حين لم نلبس نحن طوال العام إلّا القميص الخارجيّ فقط دون قميص قطنيّ داخليّ، وفي الصفّ عند الظهيرة أخلع القميص أيضاً، فأبدو عاريَ الصدر، وأقلب أكمام البنطال إلى الركبتين،

وبيدي (مسرفة) مِرْوَحة من القصب، ألَوّح بها لأحرّك الهواء، وأنا أشرح الدروس، والعرق ينبع من كل مسام جسدي، فكيف يتسلّل (البَرَاد) إلى هذا العجوز؟!.

وراء التلّ توجد مقبرة القرية، ويقولون لها كما ذكرت سابقا (المَجَنَّة)، والقبر عندهم حفرة عميقة، يُوَسّد فيها الميت، ثمّ يهال عليه التراب، ويوضع فوق القبر عند الرأس حجر عاديّ، لا يتجاوز ارتفاعه ثلاثين سنتمتراً، تطبيقاً لما جاء في الحديث الشريف "خير القبور الدواثر"، يُدفن الميت، ثمّ يغادره ذووه، ولا أحد يزور القبر بعد ذلك، لأنّهم يعدّون الجسد ثوباً للنفس أو للروح، وقد بلي الثوب، فالعلاقة مع الروح التي صعدت إلى السماء، وهناك الحساب، وليس العلاقة مع البالي.

شاهدنا رجلاً في مقتبل العمر، يزيّن أحد القبور بالأغصان الخضراء وبعض الورود، ويرشّ فوقه الماء، فقال لنا العجوز: هذا رجل (جيفة) أي سيّئ، ماتت زوجته أثناء الولادة، وما يزال يأتي إلى قبرها، هذا عيب لا يجوز، قلنا له: وما العيب في زيارته لأمّ أولاده؟!، على العكس هذا دليل الوفاء، قال: الإنسان عندما يموت تنقطع علاقتنا معه، يجب أن يكون المرء صابراً جلداً، ما نفع الزيّارة ديناً ودنيا، هل تعيد الميت إلى الحياة، حينها عرفت المعنى الحقيقيّ لقول جرير وهو يرثي زوجته:

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ ولَزُرْتُ قبرَك والحبيبُ يُزارُ

أمراض

تضطجع الشمس وراء الأفق بعد رحلة نهار طويل، بعد أن تكون قد تعبت وأتعبت، ويبدأ الليل بنسج ردائه بصمت ودأب، ونكون نحن قد هيّأنا مصباح الكاز الكليل ليجاهد ويمزّق ما استطاع من أردية الظلام، نستلقي على سريرينا خارج الغرفة لنحمي أرجلنا من دُوَيْبَّة تسعى أو عقرب يتنزّه، ولكن ليس من ضبع مشبوقة، ويبدأ حديثنا الإجباري من بعد المغرب، إذ لا يمكن أن نبقى صامتين كالرهبان، وما إن تنتهي صلاة العشاء حتّى نكون قد تعبنا من الكلام، فيسبح خيال كلّ منّا في أحلام اليقظة، وما يلبث أن ينزلق الخيال في بحر السبات العميق، فتتعانق الأحلام ساعات طويلة، نكون قد حقّقنا خلالها آمالنا المُحبطة ورغباتنا المقموعة، نستيقظ مع الفجر، وقد أُترعت رئاتُنا بهواء السهول المُقَطَّر، ويبدأ النهار يزحف، وترسل الشمس طلائعها، فيشتعل المشرق بساحل ناري عجيب كشفق المغيب، لا يلبث أن ينصل، وتنطفئ جذوته، ثم يذوب في درّة الصباح، عجباً لم نر هذه الولادة المتوهّجة للنهار في مُدننا، لقد حَجَبْنا عن عيوننا جمالَ صنع الله بهذه الجدران الرصاصيّة والغازات القاتلة، كنت أحاول أن أتخيّل هذه الآية حين أشرح لطلّابي بيت المعري:

ثم شابَ الدّجى وخافَ من الهَجْـــــــرِ فغطّى المشيبَ بالزَّعْفَرانِ

أيرى ضريرٌ هذه اللوحة الربانيّة، ويبدع تصويرها في هذا البيت الخالد، ونَعمى نحن- المبصرين- حتّى عن رؤيتها؟!.

بدأ الطقس يعتدل، وبدأ الليل يشرب ندى السهول، وبدأنا ننام داخل الغرفة هرباً من رطوبة الليل، استيقظتُ صباح أحد الأيام، وأنا أرتجف من البرد، ولا أقوى على النهوض من الفراش، طلبت من زميلي أن يضع غطاءه الصوفي فوق غطائي، ازداد الرجفان، ثم بدأت أشعر بحرارة تشتعل داخلي وتلهب أنفاسي، جاء منصور وقال: هذه الملاريا (البرداء) لا خطر منها، ستزول بعد يومين على الأكثر، علينا أن ننقله إلى المستوصف في الخوبة.

لقد تمكنت منّي أخيراً هذه (الأنفلوليس) اللعينة أنثى البعوض، رغم كلّ الاحتياطات، وغرست خرطومها في جلدي الطري، وامتصّت ما شاءت من دمي الغالي، رآني الطبيب الهندي، ومن دون أن يقوم بأي فحص عاديّ أو سريريّ كتب الوصفة المعهودة لهذا المرض، فكلّ يوم يأتيه عشرات الحالات مثل حالتي، كان الدواء حبوب (الكينين)، تؤخذ لمدة ثلاثة أيام، وبعدها يتماثل المريض من مرضه.

كنّا نتفاهم مع الطبيب الهندي بالإنكليزيّة المشوبة بالهنديّة والعربيّة، جاء أحد المدرّسين مرّة، وأراد أن يشرح للطبيب أنّه مصاب بنفخة في أمعائه، فلم يجد طريقة إلّا أن يشير بيده صاعداً هابطاً كمن يملأ دواليب درّاجته بآلة النفخ اليدويّة، وهو يقول: (بف بف بف)، فهم الطبيب مرضه وضحك وضحك الجميع.

عند الظهيرة جاءني منصور بطبق فيه فرّوجة مسلوقة مع كثير من الفليفلة الحمراء الحادّة (الحريفة)، قال: هذا علاجنا لهذا المرض، تناولت لقيمات منه، كانت نفسي تعاف الطعام من تأثير المرض.

أصبت بالملاريا مرّتين فقط طوال عام كامل في جيزان، وكذلك زميلي أبو عماد أصيب مرّتين أيضاً.

بعد أيام جاءت حملة لمكافحة (البلهارسيا)، أعطى الطبيب المصريّ كلّ طالب أنبوبة اختبار، ليملأها من بوله، رجعت الأنابيب جميعها على الإطلاق مملوءة بولاً بلون الدم، قال لنا الطبيب: الطلّاب جميعهم مصابون بالبلهارسيا، وحتماً جميع سكان القرية مصابون أيضاً، وكما هو معلوم عندما يخوض الإنسان في المياه الراكدة، تثقب أجِنّة البلهارسيا جلدة، وتتوجّه إلى الأوردة الدمويّة، لتتحول إلى ديدان بالغة، تعيش في الأوعيّة الدمويّة لمثانة الإنسان، وتسبّب له ألماً ونزفاً دائماً، وليس لهذا المرض دواء، عليكم -أنتم المدرسين- أن تنشروا الوعي الصحيّ بين الطلّاب، وتحذّروهم من الخوض في مياه الوادي حفاة، أو استعمالِ الماء قبل تركه أربعاً وعشرين ساعة حتّى تموت أجنّة البلهارسيا، قلنا له: يا دكتور الماء حياتهم، ففي الوادي يغتسلون، ومنه يشربون، وبه يطهون طعامهم، وينظّفون أشياءهم.

تركَتْ حملة مكافحة البلهارسيا القرية لقدرها، وتركتنا نحن- المدرّسين- لمخاوفنا، وغادرت إلى قرية أخرى، بعد أن زرعت في نفوسنا الشكوك والوساوس من أن نصاب نحن بهذه الآفة التي لا شفاء منها.

أحد الطلاب- وهو في السادسة عشرة من عمره- يتألم دوماً من حصاة في كليته أو حالبه، أين مكانها؟ لاندري، وعندما كان يبرّح به المرض ينقطع عن المدرسة يوماً أو يومين، ذهب به أهله إلى الأطباء في جيزان، ثم عادوا، وأبوه يرفض أن تُجرى له عمليّة جراحيّة لاستخراج الحصاة خوفاً على حياته، والطالب يزداد هزالاً واصفراراً وألماً، حتّى ظننّا أنّ الحصاة ستقضي عليه، قال أبوه: سأذهب به إلى اليمن، فهناك امرأة مشهورة تستخرج الحصاة بفمها، قلت له: يا رجل نحن في آخر القرن العشرين، وما تزال تؤمن بهذا الدجل، ردّ واثقاً: سترى!..

غاب الرجل وابنه بضعة أيام ثم عادا، والحَصَيات معهما في منديل، قال الأب: انظر يا أستاذ!، قلت له: سننتظر فربّما وضعت المرأة الحَصَيات في فمها قبل عمليّة السحب، وانتظرنا، والطالب قد تعافى، وبقي حتّى آخر العام على أحسن صحة ،لا وجع ولا غياب، لم أصدّق، لكنْ ما بدا على الطالب من تحسّنٍ وعودة رونق العافية إلى وجهه، بل من شفاء جعلني عاجزاً عن تصديق أو تكذيب ما جرى.

يحبّ اليمنيون أن يعيشوا منفردين، فينعزلون في الشعاب وفوق الصخور، وهذا ما لاحظناه أيّام التشريق في منى أثناء الحجّ، كان الحجّاج اليمنيّون يتسلّقون كالمعز المرتفعات الغربيّة، التي تفصل (منى) عن (مكّة)، ويبيتون فوق الصخور، وهذا ما يُلاحَظ في بيوت اليمنيّين وقصورهم المعلّقة على الصخور في القديم وفي الوقت الحاضر.

في أعلى قريتنا، أيْ وراء غرفتنا المنعزلة شمالاً بيتٌ على الصخور، يبعد عنّا ثلاثين متراً، يسكنه رجل يمنيّ وامرأته وابنة لهما في العاشرة من عمرها، قيل لنا: كان لهذا الرجل ابنٌ شابٌّ في العشرين من عمره، لدغته أفعى، فكانت القاضية، قالوا لنا: هناك أفعى بحجم قلم الرصاص، إذا لدغت أحداً، فعليه أن يوصي فوراً، لأنّ بينه وبين الموت خمس دقائق فقط، ولا شفاء من هذه المتسلّلة، فلم يستطع هذا الأب المسكين أن يرى ابنه حيّاً بعد أن لدغته هذه القاتلة، كان كئيباً دائم التفكير، وكانت زوجته حاملاً، ينظر إليها ويأمل فيما يبدو أن يعوّضه الله عن فقيده بمولود ذكر، ينسيه مصيبته بابنه، كانت زوجته سيّدة محترمة، تسير بهدوء واتّزان، أصبح بيننا وبينها ما يشبه الألفة، تبدو من نظراتها الودود من بعيد حين نطبخ أو ننظّف الأواني، طبعاً دون سلام أو كلام.

استيقظنا على صوتها تتألّم وتصرخ، فقد جاءها المخاض، جاؤوا بالممرّضة (سَنّية) من مستوصف الخوبة -بعد أن عجزت القابلات في القرية والمسنّات الخبيرات عن فعل أيّ شيء- أعطتها سنيّة خانم بعض الحقن المهدّئة- وأظنّ أنّ سنيّة لا تعرف من الطبّ إلّا اسمه- ثم غادرت، بدأت النساء يتوافدْنَ، وكلّ واحدة تعطي خبرتها ومشورتها دون فائدة، قلنا لمنصور: لماذا لا تأخذونها إلى المشفى في جيزان، فهناك أطباء مختصّون، وشرحت له: أنّ عنق الرحم لم يستجب لتقلّصات المخاض، وهناك عمليّة تسمّى قيصريّة ، يمكن بها إخراج الجنين من بطن الأمّ بسهولة، رد: إذا كان الله قد كتب عليها أن تموت في هذا الوقت، فهل يستطيع أطباء جيزان أن يعطوها عمراً من عندهم، العمر محدود يا أستاذ، اتركوا الأمر إلى وليّ الأمر، ثمّ لا يجوز للرجال أن يتدخّلوا في أمور النساء.

استمرت المسكينة تتألّم وتصيح ثلاثة أيّام، ونحن نتحرّق ونتألّم معها، والموت يسلّ منها رويداً رويداً أنفاس الحياة. عصر اليوم الثالث انبثق الصراخ من غرفتها، وخرجت النساء يندبنَ، ويلطمنَ الوجوه والصدور، لقد شاء لها قدرها و(الجهل الأسود) أن تموت هذه الميتة البطيئة البائسة، لست أدري لماذا حزنت عليها كثيراً، وكأنّها إحدى قريباتي، كنت أشعر أنّنا جميعاً شركاء في قتلها، كان بالإمكان أن ننقذها، لقد تركها الجميع كغزالة جريحة، تخلّى عنها قطيعها ورحل.

تركت زوجتي، وهي حامل، وقد حان الآن وقت ولادتها، ولا حيلة لي إلى معرفة أخبارها إلّا عن طريق الرسائل التي عليها أن تسلك طريق الحرير، فتسافر الرسالة من حلب إلى دمشق، ثمّ إلى الرياض، ومنها إلى جيزان، ومن ثَمّ إلى المسارحة، وبعدها إلى الخوبة، وأخيراً إلى يد الرجل الفلسطينيّ الطيّب الذي ينقلها بدوره فرحاً إلى المدرّسين، انتظرت

وانتظرت، كان موعد وصول البريد- كما ذكرت- يومي السبت والثلاثاء، كنتُ أخرج في غير هذين اليومين، وأنظر إلى طريق الخوبة عسى أن أرى ذلك المِرسال قادماً، يحمل البشرى، وأنا على يقين من أنّني لن أراه، واحترتُ، ماذا أسمّي هذا السلوك أو هذه الظاهرة التي تتجاوز العقل والمنطق؟!، لكنّها اللهفة الحائرة.

جاءتني رسالة من صديق لي يهنّئني بمولودتي بالسلامة، فهدأت وساوسي قليلاً، وبعد أسبوع جاءت رسالة من زوجتي تبشّرني بمولودتنا كندة، كان تاريخ إرسال رسالتها قبل رسالة صديقي بأسبوع، انتظرت أياماً وأسابيع أخرى حتّى جاءتني رسالة ثانية، بداخلها صورة لابنتي الأولى تحتضنها أمّها، لكنّها مكسّرة وخصوصاً من الزوايا، كتبت قصيدة أعبّر فيها عن فرحي وأساي، سأورد بعضاً من أبياتها، وأرجو ممّن لايستسيغون الشعر الذاتيّ أن يتجاوزوها:

في موكب الصبحِ السَّنيّ تألّقــــتْ ... أُمًّا ، ملاكاً رقَّ في استحيـــاءِ
تحنو على إضمامةٍ من زنبــــقٍ ... حارَ الجمالُ بحسنِها الوضَّـــاءِ
تحنو حُنُوَّ الوردِ يحتضنُ النــدى ... وتفيضُ حبّاً دافقاً بسخـــــاءِ
هي بنتُها بل مُهجتي ، قمٌر صغيـ ... رٌ ، ألفُ نجمٍ شَعَّ في الظلمــاءِ
تغفو على صدرٍ حنونٍ مثلَمــــا ... يغفو المسيحُ على يدِ الـــعذراءِ
يا دُرَّةً حجبَ البِعادُ بريقَهـــــا ... فسرى لهيبُ الشوقِ في أحشائي
أَيَهُلُّ نورُك ، تولدين؟! ولا أرى ... كنزَ الضياءِ بطَلْعَةٍ حسنـــــاءِ
يا قسوةَ الأيّام ! أُحْرَمُ وجهَها ؟! ... ويُحالُ بين صباحها ومسائـي ؟!
وأُعلِّلُ القلبَ الحزينَ بصـــورةِ ... تجلو نقاءَ عيونِها الخضـــراءِ
أتأمّلُ الزهرَ النديَّ بوجههـــا ... وملامحاً شفَّـــتْ بـــكلّ رُواءِ
ووداعةَ الظبيِ الغريرِ ورقَـــةً ... وتهلّلاً كسحابــــةٍ بيضـــــاءِ

الأفعى

كنا نتريّض ساعة الأصيل بعيداً عن القرية، فإذا ببضعة أطفال من البدو الرحل حفاة عراة تماماً، لا يتجاوز أكبرهم السادسة من عمره، يتصايحون، وهم يحاولون الدخول في مغارة، سُدّت بشجرة شوكيّة، سألهم أحدنا لعلنا نستطيع مساعدتهم: لماذا تتصايحون؟ قالوا: دخلت أفعى كبيرة منتفخة من وسطها ومدببة من طرفيها إلى المغارة، ونريد أن نخرجها، لا شكّ أنها ابتلعت فريسة كبيرة، ودخلت جحرها لتهنأ بهضمها، لم أر أفعى قط، فانتابني شعور بالخوف، تركنا الأطفال على باب المغارة، يحاولون دخولها، وكنت أول المبتعدين (أو على الأصحّ أوّل الهاربين)، وتبعني الآخرون، نسير خَبَبَاً، ولولا الخجل من بعضنا بعضاً لانطلقنا عدواً.

تحدّث الجاحظ في إحدى رسائله عن شجاعة أهل المَدَر أيْ (البادية) وجبن أهل الحضر، وعلّل ذلك بأنّ ابن البادية منذ أن يعي ما حوله والأخطار تُحدق به، وتتحداه، فيجب أن يكون جريئاً شجاعاً، يواجه أشدّ الأهوال، وإلّا فعليه أن ينسحب من معركة الحياة، لأنّ البقاء فيها للأقوى، أمّا جبن أبناء المدن، فراجع إلى أنّهم لم يتعرّضوا للأخطار والتحدّيات، واعتادوا على حياة الدّعة والكسل، فتأصّل الجبن في نفوسهم، وتخاذلوا أمام أوّل خطر يواجههم، وهذا ما جرى مع أحد زملائنا.

خُصّص للمدرّسين مرحاض خاصّ- والمرحاض عند أبناء الشام هو الحمّام عند إخوتنا المصريّين والخليجيّين- فهو هنا حفرة مكعّبة الشكل، ضلعها متر تقريباً تغطّى بألواح الخشب أو الحجارة حسب ما يتوفر، وتبقى فتحة صغيرة في وسطها، وتُبنى الجدران حولها من قرميد الطين، وتُسقف بألواح التوتياء، أو تبقى منفتحة على الفضاء، زميلنا الأزعر وهذه كنيته، شابّ فلسطينيّ في العشرين من عمره، قصير مفرط في القصر قويّ مفتول العضلات، خرج من المرحاض طائش اللبّ، دون أن يرتّب ثيابه، مظهراً ماحقّه أن يُستر، يثب ككرة القدم، ويصيح حيّة حيّة، فهمنا منه بعد أن هدأ، أنّه بينما كان يجلس القرفصاء، يمارس حاجته البيولوجيّة، سمع صوتاً ناعماً غريباً، تلفّتَ على عادة أبناء المدن الحذرين من كل شيء في هذا المنفى، فإذا بأفعى تتطاول برأسها المشرع على مصراعيه من حفرة المرحاض، تريد أن تنال من مؤخّرته، فكان أن نطح برأسه سقف التوتياء، وخرج إلينا خروج ثور المصارعة، أُفلتَ من مَحبسه، بحثنا عن الأفعى خائفين فلم نعثر لها على أثر، وحمد كلّ منّا الله في سرّه أنّنا لم نجدها، وصرنا بعدها نقضي حاجتنا البيولوجيّة شبه قيام.

قالوا لنا: على كلّ واحد منكم أن يحمل عصا، ينشعب طرفها السفلي إلى شُعبتين، وبمجرّد أن يُحصَر رأس الأفعى بين الشعبتين ينتهي أمرها، ويمكن حينها أن يمسكها المرء من ذنبها، ويطوّح بها ضارباً رأسها بالصخر، كنت أتخيّل ذلك، ولا أصدّقه، راح كلّ منّا يختار غصناً قويّاً مُنشعِب النهاية، يحمله ويسير به كرجال العصور الحجريّة.

ذهبنا لزيارة أصدقائنا المدرّسين في قرية هي الأقرب إلى غابة الخيزران- وغابة الخيزران هذه كما أخبرونا هي غابة من شجر الخيزران متشابكة الأغصان، وهي مَجْمَع لكلّ وحوش الدنيا، وأخطر منطقة في المعمورة كما يزعمون، فلا أحد يستطيع الدخول إليها- قبل أن نصل القرية سمعنا صوت خشخشة، أفعى تقطع الطريق أمامنا بين الحشائش، بسرعة هائلة لمحناها لمحاً، أظنّها كانت من نوع (الكوبرا) ترفع صدرها عموديّاً على الأرض، وتطلّ برأسها المنبسط إلى الأمام، وقفنا جامدين مذهولين، وقد اصفرّت وجوهنا، واتّسعت أحداقنا، و.....، ولأول مرّة أرى أفعى تسعى، أيّ عصا هذه التي توقفها؟!!.

وصلنا إلى القرية، وعندما رآنا أصدقاؤنا المدرّسون على هذه الحال البائسة، وعلموا بما جرى معنا، ضحكوا وقالوا: هذه أفعى لا تقرص، الأفعى التي تقرص تكون بطيئة الحركة، فلو كانت هذه السريعة من القوارص لقضت على سكان القرية في يوم واحد، ومع ذلك لم نصدّق ما قالوه، كيف نصدّق والموت سافراً مرّ من أمامنا جهاراً نهاراً.

سألت أحد المسنّين في قريتنا قوا: ما أكبر أفعى شاهدتها في حياتك في هذه الأرض المعطاء؟، أجابني: كنت أرعى الإبل وأنا جالس في ظل شجر، سمعت صوت تكسير أغصان، نظرت فوقي، فإذا أفعى كبيرة تحطّم الأغصان نازلة تسعى إليّ، ثم كشف عن ساقه وقال: والله كانت بثخانة هذه الساق، وتابع: كانت معجزة أنْ استطعت جمع الإبل، والهروب بها.

ذهبنا عصر أحد الأيّام لزيارة صديقينا في قريتنا، جلسنا أمام البيت على قعّادتين، تقدّمت جارتهما التي تسكن أمامهما، تستنجد بمروءتنا نحن الرجال الأربعة، كانت حبلى، تسير متمهّلة بشكل لافت للنظر، تسند خاصرتها بيدها اليمنى، وبطنها يميل يميناً ويساراً مع خطواتها المتثاقلة، قالت ببرود ولا مبالاة: "أفعى كبيرة لا أقدر أقتلها، أطردها من (هين) هنا تعود من تحت التبن من (هين) هنا، لا تريد تروح، جاءت على ريحة اللحم اللي (أخمده) أطبخه"، انتصبنا جميعاً واقفين، واتّسعت أعيُنُنا، تجوس أطراف المكان، وكما في المرّة السابقة، أبو عماد برجليه الطويلتين، خطا عدّة خطوات وغاب عن الأنظار، وكنت أنا في إثره بخطوات أسرع.

في اليوم التالي أراد زميلانا أن يعيّرانا على جبننا وهروبنا، قلت لهما:

ـ خسئ الجبن والهروب، نحن ذهبنا نفتّش عن الأفعى من الجهة الأخرى.

ـ وهل وجدتماها!

ـ نعم.. فما إنْ رأتنا حتّى هربت.

إلى أبو عريش

كان أبو عمّار قد دعانا لزيارته في ناحية أبو عريش التي تبعد ثلاثين كليو متراً شرق جيزان، في الطريق بين المسارحة (الأحد) وجيزان بحار رمليّة وكثبان، تتعانق أجنحتها على جانبي الطريق، ونحن في سيّارة أجرة صغيرة، فجأة جنحت السيّارة عن الطريق الأسفلتي، لكنْ من حسن طالعنا أنّها دخلت في كثيب رمليّ، فانطلقْنا بعفويّة نردّد: (الله أكبر.. يا ستّار يا ستّار..)، كان السائق قد أخذته غفوة، فربما كان ساهراً طوال الليل (يخزّن) القات، نزل الركاب جميعهم وبدأنا نسحب السيّارة من بطن الكثيب، والشمس فوق رؤوسنا تنظر إلينا شامتة، نسحب والدواليب تزداد غوراً في الرمال، وأقدامنا التي تنتعل (الزنّوبات) تتبعها، ونحن نزداد تعرّقاً وتعباً، وقفنا عاجزين يائسين نلهث، قال السائق: لايُخرج السيّارة إلّا رافعة قويّة، وهذه لاتوجد إلّا في جيزان، قلنا له: وما العمل الآن؟!، ردّ: تنتظرون حتّى أذهب إلى جيزان وأعود، أو تتصرّفون بما ترونه مناسباً، وقفنا حائرين نتلفّت إلى امتداد الرمل الذي ليس له نهاية، تساءلت كيف كان البدويّ يتصرّف وسط لهيب هذه الهاجرة؟!.

بقعة سوداء تتهادى وتقترب على الطريق الإسفلتي ، بدت سيّارة (شاس)، أسرعنا إلى الطريق نلوّح بأيدينا، وقفت السيّارة، شرحنا للسائق مأزقنا، ظهرت منه فروسيّة وشهامة، ركب الجميع معه، وتابعنا إلى جيزان، وسائق سيّارتنا معنا يلومنا ويقول: كان عليكم أن تتكلّموا معي وتحادثوني طوال الطريق حتّى لا أنام.

أبو عريش ناحية أو قرية كبيرة، بيوتها طابق واحد من القرميد الطيني، ونصف شوارعها معبّدة بالإسفلت، وقد وصلتها الكهرباء حديثاً، وفيها فرن يصنع الخبز ويبيعه.

أمضينا يوماً سعيداً مع أبو عمّار وصديقنا الحلبيّ عبد الرزاق عبد الجليل (عقاد)، يوماً كسرنا فيه رتابة الحياة المملّة في قوا، ما نفثته الشمس من أحشائها طوال النهار لم تزل تختزنه الأرض والهواء، ثمّ كانت ليلة فاسقة تضيق بها الأنفاس، دخلت الحمّام الحبيس الملتهب لقضاء الحاجة، كانت الصراصير الكبيرة- لم أر قط مثل حجمها- تغطّي الحيطان والسقف تماماً كورق الجدران، وتتساقط على الأرض، منظر فريد رهيب، تردّدتُ ثمّ كان الذي ليس منه بدّ، كانت الصراصير تتساقط أمامي وعلى ظهري، بطبعي لا أخاف من الصراصير، لكنّها كريهة مقزّزة، لم أستطع أن أتابع، خرجت وتسلّلت بعيداً عن منزل صديقي لأكمل في العراء المظلم، ثم علمت أن صديقيّ صاحبي البيت يفعلان مثل ما فعلت، يخرجان إلى العراء أيضاً.

ومن طريف ما قرأت في الشابكة (النت) مؤخراً- إنْ كان الخبر صحيحاً- أنّ العلماء توصّلوا إلى كشف ظاهرة مضحكة، هي أن الصراصير تتقزّز من الإنسان، فإذا لامست شخصاً ما أو سارت على ثيابه، تسرع إلى مخابئها لتنظّف أجسادها ممّا علق بها من هذا الشخص، فهل تراها بعد أن تساقطت على ظهري أسرعت لتنظّف أجسادها؟!،

قال لنا منصور سأسافر غداً في جولة في أنحاء المملكة، سألناه عن السبب، فقال: أريد أن أتزوّج، ولا أملك المهر الكافي، فسوف أمرُّ على أبناء القرية الذين يعملون في المدن والمناطق في المملكة، وآخذ ممّن أصادفه ما تجود به نفسه، سأله أحدنا: أهذا قرض أم مساعدة؟، ردّ: لا لا هذا مساعدة، فالعادةُ عندنا مساعدةُ من يُقدم على الزواج بمبلغ حسب الاستطاعة دون مقابل، قلتْ له: هذه والله عادة أكثر من حسنة على أن يكون الزواج الأوّل فقط، فهل زوجتك وأولادك موافقون على زواجك الثاني؟ أجاب بكلّ برود: وما شأنهم بي وبزواجي؟!، هل أنا مقصّر في حقّهم، وكان أكبر أولاده طالباً في المدرسة في العاشرة من عمره.

ذهب منصور أسبوعاً وعاد دون أن تبدو عليه أمارات السرور، سألناه عن حصيلة جولته، فرد مكتئباً: لم أجمع ما كنت أتوقعه. يبدو أنّ هذه العادات الأصيلة المتفرّعة عن الكرم العربي والتي توارثوها عن أسلافهم، قد بدأت تنحسر، بعد أن طغى سلطان المال على الجميع، وشوّه النفوس، ومحا الطيبة والفطرة والإيثار.

دعانا بعد زواجه بأسبوع إلى تناول الغداء، وكان قد دعا وجهاء القرية وأصدقاءه المقرّبين، الطعام كالعادة كبسة، رزّ فوقه قطع اللحم، كان منصور قد حذّرنا من أنْ نستعمل اليد اليسرى أثناء تناول الطعام مهما كان السبب، فاستعمالها يُعَد إهانة للحاضرين، وربّما تركوا الطعام ونهضوا، يجب أن توضع اليد اليسرى وراء الظهر، جلسنا على الأرض متربعين، الجميع يأكلون الرزّ واللحم بأيديهم اليمنى فقط، والأيدي اليسرى وراء الظهور، طبعاً من دون ملاعق، وعندما يحتاج أحد إلى قَطْعِ اللحم يُعطي الجالس أمامه طرف قطعة اللحم، ويتجاذبانها، حتى يحصل كل منهما على قطعة، قد تكون كبيرة أو صغيرة، فإن كانت صغيرة يعيد الكَرّة.

أراد منصور أن يخصّني من بين الجميع بالاحتفاء والتكريم، فناولني قطعة من أمعاء الخروف الدقيقة، تحيط بوعاء الكبسة، وتزيّنه، كانت الأمعاء صفراء اللون، فلم أدرِ أكانت الصّفْرَة فيها من آثار مخزون أمعاء الخروف وهو حيّ، أم أنّها صُبغتْ بعد طبخها، اعتذرتْ وقلت: إنّني لا أحبّ الأمعاء، فألحّ وكاد أن يزعل، وقال: إنها أطيب جزء في الخروف، أخذتها ووضعتها أمامي دون أن أمسّها، ثم دحرجتها بخفّة إلى جاري، فالتهمها بصمت وامتنان.

طعامهم الأساسيّ (الحُكْنَة) و(الحامِضة) وهو طعامهم شبه اليومي، ولا يعرفون من أنواع الطعام الأخرى إلّا القليل، ومع فورة النفط بدؤوا يتعرّفون على أنواع الخضر المستوردة، ويحاولون زراعتها في أراضيهم مثل الملوخيّة، فالحكنة هو خبز الذرة البيضاء كما ذكرت سابقا طريقة صنعه، والحامِضة هو ما يتبقى من الحليب من سائل حامِض بعد استخراج السمن منه، ويسمّى في بلاد الشام (الشنينة) لكنْ هناك بعض أنواع الأطعمة التي تقدّم خاصّة في المناسبات، مثل الكبسة المعروفة، والمَرْسَة وهي خبز القمح الأبيض، يضاف إليه سمن الغنم ثمّ العسل أو الموز اليمنيّ الشديد الحلاوة، وتمرس جميعها باليد، فيعطي طعما لذيذاً، لذلك يسمّونه مرسة.

عندما يذهب الرجل إلى السوق يوم الخميس يجب أن يشتري (حوتة) أيْ سمكة و(بَقْلَة) أيْ الفجل الأبيض المعروف، والذي يشبه في سوريا الجزر الأصفر، يعود الرجل وهو يلّوح بهما مع بقيّة ما يشتريه، إضافة إلى ذلك عليه أن يشتري شريط تسجيل أغاني (كاسيت) ولو لم يكن بحاجة إليه.

العادة عندهم بعد الانتهاء من الطعام أن يؤتى بوعاءين كبيرين، في الأوّل ماء مضاف إليه أحد المنظّفات، وهنا يستعملون (التايد)، وفي الوعاء الثاني ماء خالص، تُغطّس اليد- اليمنى طبعاً- في الوعاء الأوّل للتخلّص من الدهون، ثم تُغطس في الوعاء الثاني للتخلّص من المنظّف، وبعدها ينشّف المرء يده بمنشفة يحملها ولد، ويُرش العطر على اليدين معاً هذه المرّة.

بعد أن يُغطّس أوّل شخص يده في وعاء التايد يعلو الدهنُ الماءَ، ويصبح منظره مقرفاً، لذلك كنت أحرص على أن أكون أوّل من ينظّف يده، كنت آكل وعيناي تراقبان الجميع حولي، فإذا شبع أحدهم، واستعدّ للنهوض، أكون قد سبقته إلى وعاء التايد، وكثيراً ما كنت أنهض عن المائدة قبل أن أشبع.

بعد أن انتهينا من الطعام نادى منصور: أين الماء؟، كانت زوجته تنتظره حتى هذه اللحظة، لتنتقم من فعلته، فليس هناك أوعية لغسل الأيدي المملوءة بالدهون، والجرار فارغة، ركض منصور يهزّ الجرار، ويقلّبها، وقف أمام ضيوفه حائراً خجلاً، لا يدري كيف يعتذر ويسوّغ موقفه.

دعانا أحد أولياء الطلّاب إلى وليمة غداء، وربّما كانت دعوات الغداء بمجملها على مدار العام لا تتجاوز خمس مرات، فرح كلّ واحد من المدرّسين، لأنه سيأكل اللحم مرّة ثانية في الأسبوع، وكما ذكرت سابقاً، فالفروج واللحم لا يتوفّران إلّا يوم الخميس حيث ينعقد السوق في ناحية (الخوبة)، ولا يمكن تخزين اللحم لندرة وجود برّادات في القرية، بدأنا الطعام، وهو كالعادة (كبسة) رز وفوقه شرائح اللحم، تناولت شريحة كبيرة (إنه الطمع)، وبدأت أطحنها بأسناني القويّة الحادّة- رحم الله أيام الشباب- كانت عصيّة على المضغ شيمتها الصبر، بقيت دقائق في فمي أعالجها حتى كلّتْ أسناني، وتعب فكّيّ، وهي صامدة كقطعة البلاستيك المَرِن، لا تَحِنّ ولا تلين، ماذا أفعل بها أمام القوم، وكلّهم يأكلون بنهم وشهيّة، ويتناولون الشريحة تلو الأخرى، بلعتها دفعة واحدة، فكادت أن تسدّ بلعومي وتكتم أنفاسي، تابعتُ الطعام من الرزّ فقط طبعاً باليد اليمنى، واليسرى وراء ظهري، وكلّما ناولني من يجلس أمامي طرف شريحة لنقطعها سويّة، حوّلتُهُ دون أن أنبِس إلى جاري الجَنْب، فيتناولها جاري ثم يُغَيّبُها خلسةً في جوفه، سألت منصوراً بعد أن غادرنا عن سرّ هذا اللحم اللذيذ الذي يذوب (كالصمغ قبل المضغ) كما يقول مُبدع المقامات، قال: إنه لحم رأس ثور، وهو قاسٍ قليلاً، ولكنّه طيّب مع العافية، قلت له: بالصحّة والشفا إنْ شاء الله.

الحيوان الأعجم المسالم الذي لا يملك مخلباً فاتكاً أو ناباً مسنوناً أو قرناً قاتلاً يلاقي في هذه البلاد الظلم والاضطهاد، في البيت أمام خُصّ صديقينا، وعند المرأة التي كانت تطرد الأفعى بقرةٌ وعجلها الذي لا يتجاوز عمره الأسابيع، كانت البقرة تُربط إلى جذع قويّ، وأمامها أكوام من الحشائش والبرسيم، وعلى مقربة منها يُربط عجلها أمامها، بحيث لا يستطيع الوصول إليها، وأمامه أيضا البرسيم الغضّ، ينظر كلّ منهما إلى الآخر بلهفة وشوق، يَثِبُ العجل إلى أمّه ليروي ظمأ أحشائه من لبنها الدافئ، فيردّه القيد، ويحزّ رقبته، فينكفئ متألماً، ثم ينسى فشله، ويعيد الكَرّة بعد الكَرّة، وعندما يعضه الجوع، ويئيس من الوصول إلى حليب أمّه، يضطرّ إلى أن يأكل البرسيم الذي لا يناسب معدته الطفلة، تنظر البقرة إلى وليدها أمامها فتضطرم بين جوانحها عاطفة الأمومة، تحاول أن تخطو إلى عجلها، فتمنعها قيودها المتينة، وهكذا يبقى الحنين والتَوَثُّب والاشتياق طوال النهار، في المساء يُفَكُّ قيد العجل، فبقفزة أو اثنتين يصل إلى الضرع المترع حناناً وعطاءً، تشمّ الأمّ وليدها، فيتدفّق الحليب في مسارب الضرع غزيراً سخيّاً، بعد لحظات يُعاد العجل بقوّة وعناد إلى مربطه، وقد نهل نهلة أو اثنتين، ويوضع وعاء كبير تحت الضرع، ويُحلب حتّى يكاد أن ينفد كلّ ما فيه، عندها يُطلق سراح العجل ثانية، ليتعلّل ببقايا ما فضل في الضرع، كان ينتابنا نوع من الأسى والحزن على هذا الحيوان الأعجم، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً، فهذه طريقتهم ومسلكهم.

ضرير المعرّة الذي حَرّمَ على نفسه كلَّ ما يُؤكل ويُشرب من الحيوان طوال خمسين سنة، وحثّ غيره من بني البشر على اتّباع منهجه الإنسانيّ في الحياة (حسب اعتقاده)، فقال في إحدى لزومياته:

فلا تأكُلَنْ ما أخرجَ الماءُ ظالماً ولا تَبْغِ قُوتاً من غَريضِ الذبائحِ

وأبيضَ أمّاتٍ أرادتْ صَريحَه لأطفالِها دونَ الغَواني الصَرائِحِ

غريض الذبائح: اللحم الطريّ /// أبيض أمّات: حليب الحيوانات /// الغواني الصرائح: النساء الجميلات.

فما تراه يقول لو أنّه سمع بهذه الطريقة الفظّة العنيفة في الحصول على حليب هذه البقرة العجماء.

قريتنا (قُوَّا) تقع على طريق القرى المجاورة إلى سوق (الخوبة)، شاهدنا مرّة رجلا يركب حماراً ويتّجه إلى السوق، وقد أثقل حماره بما لا يطيقه، وهو يُلهب رقبة المسكين بعصا من الخيزران لا ترحم، كان الحمار يسير وهو يعرج، فحبل السرج البلاستيكي يحزّ فخذه، وقد حفر فيه أخدوداً، والدم يسيل منه، قلنا: يا عمّ، الحمار جريح ،ودمه يسيل، نظر إلينا باستغراب وتابع.

قرأنا في كتب التراث قصصاً طريفة عن الطفيليّين ونوادرهم وعن زعيمهم أشعب، وكيف يغشى المآدب ويتخلّص من المواقف المحرجة بعباراته اللطيفة وتعليقاته المضحكة، كنت أظنّ تلك القصص من إبداع خيال الرواة، أو ربّما كانت هناك مبالغة في حقيقتها وطريقة سردها، إلى أن دعانا صديقانا إلى تناول الغداء عندهم بعد صلاة الجمعة، أثناء خروجنا من المسجد قلت لأبي عماد بصوت مسموع: سأذهب إلى غرفتنا لأمر ثم ألحق بكم لتناول الغداء، دخلت خُصّ صديقينا، فإذا بشابّ من القرية في العشرينيّات من عمره، واسمه (لبّادة) يتصدّر المكان، يجلس صامتاً ساكناً، لا يطرف جفنه، ولا يغيّر جلسته، وكأنه قاضي البصرة، وُضع الطعام، فتحوّل من تمثال إلى (سعدان) أصابعه الرشيقة الخبيرة تفرز بمهارة عجيبة قطع اللحم الطريّة، وفمه الواسع يُغَيِّبُ بلمحة كلّ ما يلقى فيه، يزدرد اللقم الكبيرة دون مضغها، دقائق وأكثر ما كان على المائدة وبخاصّة من اللحم صار في جوفه، فلله درّك يا بن الرومي!، وكأنّي بك قد رأيت (لُبَّادَتَنا) هذا، وهو يلتهم الطعام، فنظمت بيتيك الخالدين:

يا ليتَ شعري إذا أوما إلى فمِهِ أحَلْقُهُ لَهَوَاتٌ أم ميادينُ

كأنّها وخَبيثُ الزّادِ يُضْرِمُها جهنمُ قُذِفَتْ فيها الشياطينُ

ثم قام وانصرف دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، قال لي الأستاذ حسن: لماذا رفعت صوتك عند خروجك من المسجد؟، لقد سمعك (لبّادة)، هذا طفيليّ القرية، ما إن يسمع بوليمة حتّى يكون أوّل الداخلين، وما من حيلة لصرفه. وَجْهٌ لا يندى، وعينٌ لا تخجل، ونفسٌ لا تعرف الكرامة.

كان أشعب كما ذكرت خفيف الظلّ، صاحب نكتة، يحاول أن يُضحك الحاضرين، ويُدخل إلى نفوسهم السرور، فيقبلونه ضيفاً لطيفاً، أمّا طفيليّ قريتنا فمن نوع آخر.

مرّة حاذى هذا الطفيلي غرفتنا، فشمّ رائحة الفروج، وهو يُطهى، دخل وجلس جلسته السابقة، همست في أذن أبي عماد: قُمْ واستلقِ على سريرك وتظاهر بالنوم، وقمتُ إلى موقد الكاز تحت الفرّوج وأطفأته، وتمددتُ على سريري لأنام، وقلت لـ (لبّادة) تصبح على خير، جلس ما يقرب من الساعة وحيداً صامتاً صابراً بجَلَدٍ، لكنّه رأى ألّا أمل من الوليمة فانصرف، والمرارة تملأ نفسه، ربّما كانت هذه هي المرّة الأولى التي يفشل فيها في مسعاه، وأظنّها ستبقى ذكرى أليمة في حياته، سيذكرها طويلاً.

ذكروا لي بعض العادات والأعراف التي كانوا يمارسونها زمن (جاهليتهم) أيْ قبل دخول السعوديّين، عادات تدخل في باب الغرابة أو الأسطورة، منها مثلا: كانت القبائل أو القرى تتصارع فيما بينها، فتُغِيْرُ الواحدة على الأخرى، وتسيل الدماء، وعندما تُعقد الهدنة أو الصلح يفرض المنتصر على خصمه جملة شروط، منها امتناع المهزوم عن إشعال النار ليلاً ونهاراً طوال عام كامل أو أكثر حسب الاتفاق المُبرَم بينهما، مهما كانت الحاجة إلى النار، سواء أكانت لطهي الطعام أو الاغتسال أو الإنارة ليلاً.

من بعد الغروب كان كلّ منّا يحمل مصباحاً يدوياً يعمل على (البطارية) المُدَّخِرَة، فلا يغادر يده حتّى الصباح، ينام وينام المصباح إلى جانبه على السرير، يوجّهه إلى كل ناحية، حتّى ولو لم يكن هناك ما يريب، إنّه الحذر والتوجّس، فكيف تبقى القرية المهزومة عاماً كاملاً أو أكثر دون إنارة؟!.

مرّة عدنا من سهرة عند زملائنا، هاتف من عالم مجهول ناداني لا أعرف مصدره، قال لي: اقلب الوسادة، وكان من عادتي أن أنام مباشرة لأنني كنت أُحيط الفراش بالكلة، أُدخل أطرافها تحت الفراش، فلا تدخلها نملة، قلبت الوسادة، فإذا (حريش) أمّ أربع وأربعين خمريّة اللون، طولها يتجاوز العشرين سنتمتراً، تتمدّد تحت الوسادة تنتظر رقبتي الطريّة، لاتسلني عن طريقة قتلها، فأنا لم أذكر كيف قتلتها، لكنّني أذكر أنّني رأيتها بعد ثوان مِزَقاً على الأرض.

ومن الطرائف الفريدة التي سمعتها عن صراع القبائل في هذه المنطقة الأعجوبة، وهذه الطرفة أصبحت معروفة لدى الجميع، أنّ قبيلتين في اليمن تقاتلتا، فقُتِلَ بطريق الخطأ مدرّس رياضيات مصريّ، كان يقوم بالتدريس في إحدى القبيلتين، فقامت القبيلة الثانية المغدورة لتأخذ بثأر مدرّسها، وصمّمت ألّا يتمّ الصلح حتى تَقتل مدرّسَ الرياضيات المصريّ أيضا في القبيلة الأولى المعتدية، وقد استطاعت أن تقتله، وتعيد الكرامة المطعونة، فالعين بالعين ، والسنّ بالسنّ ، ومدرّس رياضيات بمدرّس رياضيات.

ومن غريب ما سمعت في هذه الأرض الغريبة أيضاً، ولم أشاهده بعيني ، بل حدّثني عنه الكثيرون، أنّ العروس كانت تخرج من بيت أبيها الذي لا يبعد عن بيت زوجها في أغلب الأحيان مئة متر أو أقلّ، فتقطع المسافة بزمن قياسي، هو مصدر فخر لها طوال حياتها، تخرج من بيت أبيها وتقف، فتحثّها النساء، ويرجوها الرجال- طبعاً من أقارب العريس- فتخطو خطوة واحدة أو نصف خطوة، وتقف، واثنتان أو ثلاث من قريبات العريس يسندْنَها من ظهرها كي لا تخطو إلى الوراء، يأتي وجيه من أهل العريس، يرجوها، ويقول لها: كرمى لشيبتي، وينقدها مئة ريال، فتخطو بعد دلّ وتردّد خطوة أخرى، والعريس ينتظر في بيته واقفاً أو جالساً، لا أحد يعلم، وأظنّه ينتظر واقفاً، ثم يتتابع ذوو الكرامات، وتتتابع الأعطيات والخطوات، وربّما استمرّت هذه الرحلة التاريخيّة في حياة العروس عشر ساعات أو خمس عشرة ساعة، أيْ إلى صباح اليوم التالي، وبعدها تتحدّث القرية عن هذه المأثرة للعروس، ثم يأتي دور العريس الذي عليه أن يدفع أيضا لفك (الوَزْرَة). وأظنّ أن هذه العادة قد تبدّلت الآن، وأصبحت العروس أسرع الجميع، ولله في عادات كلّ قوم شؤون.

اختلاطُ النساء بالرجال قليل، والتحدّثُ مع بعضهم بعضاً للضرورة، أمّا إذا جاء ضيف زائر أو أحد أقرباء الأسرة، وبخاصّة من خارج القرية من مكان بعيد، ورجلُ البيت غائب، فإنّ المرأة عند ذلك تخرج من بيتها أو عشّتها، وتجلس على الأرض جانب البيت، موليةً ظهرَها للضيف بادية للعيان، ويجلس الضيف وراءها على بعد عشرين متراً، ووجهه إلى ظهرها كما في الصلاة، ويبدأان الحديث على مسمع ومرأى من الجيران حتّى عودة رجل البيت، وإنْ لم يعد يقوم الضيف وينصرف إلى شأنه.

الختان

إذا كنّا نعجب من العادات الغريبة للشعوب البعيدة عنا، فهم يعجبون أيضاً من عاداتنا الغريبة عنهم، فعندما نقصّ على أهالي القرية طرفاً من عاداتنا وتصرفاتنا يقولون: "الله.. كيف تفعلون ذلك؟!"، ولكنْ أغرب ما سمعته، ولم أشاهده، بل أكدّه لي ومارسه المسنّون هو (الختان).

دخل السعوديّون إلى منطقة جيزان والمناطق الجنوبية من المملكة في ثلاثينيّات القرن العشرين كما ذكرت أكثر من مرة، وأخضعوها لحكمهم، وبدّلوا الكثير من العادات السيئة، التي تحكّمت في عقول أبناء المنطقة ونفوسهم، من هذه العادات الختان.

كانت طريقة الختان كما روى لي العشرات، وأكّد صحّتها كلّ من عاش حقبتها، وذاق عذاباتها- وقد منعتها المملكة السعوديّة بعد دخولها المنطقة- تقف على شفى الخيال أو المستحيل، يقف الفتى الذي بلغ الرابعة عشرة من عمره وقفة أسطوريّة، يقف عارياً من كل شيء أمام حشود أهل القبيلة والمدعوّين من القرى والقبائل الأخرى، ليكونوا شهوداً على حدث جلل، يحمل الفتى خنجرين ويرفع يديه- كمصارع الثيران الذي يستعدّ لطعن ثوره المترنّح طعنته القاضية- شامخ الرأس، ينظر إلى الأعلى، ويبدأ الختان بسلخ الجلد بدءاً من السره منتصف البطن ونزولاً إلى الخصيتين وصولاً إلى الحشفة، والدماء تسيل، والفتى مُتَجَلّد ثابت الجنان راسخ القدم ، يفتح عينيه إلى أقصى اتّساع، دون أن يطرف، تلمع عيناه ببريق الألم أو الفخر، لا أحد يدري، لكنّها الأولى قطعاً، وهو يعدّد مآثر أهله وعشيرته "أنا فلان ابن فلان.. خالي فلان..عمي فلان.. أنا من قبيلة..الأبطال الذين هزموا قبيلة.." والنساء يزغردنَ من وراء الرجال فرحاً وابتهاجاً بولادة رجل في القبيلة، والفتيات يختلسنَ النظر إلى آلة النشور، لأنّ هذا الفتى بعد هذا الطقس الملحميّ سينال إجازة للزواج، ممهورة بعيون جميع الحاضرين، أمّا إذا تحرّك الفتى أثناء الختان، أو صرخ، أو أبدى توجّعاً، فإنّ أباه أمامه على استعداد لأنْ يطعنه بخنجره الذي يزيّن به وسطه، لأنّ تخاذل الفتى في هذه المَسْلَخة أمام المْحبّ المُشفَق والحاسد المُترَقِّب، يمسّ شرف العشيرة ورجولتها، وبعد الانتهاء من السلخ توضع أوراق شجر مُعَيَّن على الأماكن الدامية، لتخفّف من الآلام وتعجل بالشفاء.

بعد الختان تقام الولائم والأفراح، ويرقص الرجال فقط، فالنساء يرقصْنَ في الأعراس، والرجال يرقصون في حفلات الختان، وكلّ من يتعدّى هذه القاعدة المقدّسة يَلحقه العار والشنار.

وقد روى لي أحد المسنّين مقسماً على ذلك، أنّه بقي في الفراش- بعد أن ختنوه بهذه الطريقة- ثلاثة أشهر مستلقياً على ظهره، يعاني الأوجاع والتقرّحات والإنتانات، فحمداً لله أنّنا لم نولد في تلك المنطقة ذلك الزمان!.

في منحدر القرية أمام غرفتنا وعلى بعد أمتار بيت، تسكنه عائلة من الأخدام أيْ السود البشرة، وهي عائلة محترمة، وسلوك أفرادها هادئ ومتّزن، ينخفض البيت عن غرفتنا أكثر من مترين، فنرى كلّ ما يقوم به أفراد الأسرة من أعمال، وهم مطمئنّون إلى سلوكهم، لا يجدون غضاضة في أنّنا نشاهد كلّ ما يجري في ساحتهم، شأن كلّ أبناء القرية الذين يتصرّفون في كلّ أمر أمام بعضهم بعضاً بعفويّة مطلقة.

نسعى في بلادنا إلى نشر الثقافة الجنسيّة عند الأطفال، ويقوم حول ذلك جدل وخلافات وتصادم في الآراء، أمّا هنا فقد حلّوا المشكلة ببساطة وتلقائيّة، إذ لا تعقيد في حياتهم، لأنّ طبيعة المنطقة أقرب إلى الحياة البدائيّة، كنّا نجلس أمام غرفتنا ساعة الأصيل، وفي البيت المنخفض أمامنا فتاةٌ سوداء، لم تبلغ العشرين من عمرها، تقوم بمساعدة حمارهم على الوصول إلى أتانه، تمسك بعضوه بكلتا يديها، وأبوها وإخوتها يرونها، ويمرّون بجانبها دون أن تلفت انتباههم، فهي في نظرهم تقوم بعمل عاديّ من أعمال البيت، وعلى مرتفع من الجانب الأيسر جلس بضعة أطفال بنات وصبياناً، يتفرّجون دون أن يمنعهم أحد، أو يبعدهم، أو حتّى ينتبه إليهم، وعندما انتهت الفتاة من عملها، أخذ الأولاد يَنشدون بفرح وبصوت واحد مع التنغيم (..حها ..حها) دون أن يزجرهم أحد، بل ابتسمت الفتاة لهم، وتابعت أعمالها البيتيّة.

وقد لاحظنا عفويّتهم في ذلك الأمر من خلال أقوالهم، فيذكرون أعضاء الإنسان والعلاقة مع زوجاتهم بألفاظ صريحة، دون حرج أو مواربة، وأنهم ينصرفون عن هذا الأمر إذا اشتدّ الحرّ، كان الفرّاش منصور يقول لي أحياناً: ليتني لم أفعلْها ثانية، فالأمر سيّان، وأحياناً يعبّر بألفاظ صريحة عن سعادته مع الثانية.

كنا نغتسل في الوغرة، رجل معه ابنته في العاشرة من عمرها، يمازحها وهما يغتسلان، يقول لها بصوت يسمعه جميع من حوله: (أفعلُ بأمّكِ يا بنتي)، ويذكر الفعل بلفظه العربي الفصيح، كما ورد في قاموس (لسان العرب)، فترد عليه ابنته باللفظ الفصيح عينه: (أفعلُ بأمّكَ يا بوي)، والسرور يغمرهما.

حقل القصب يستر كلّ من يدخله بأعواده التي يتجاوز طولها ثلاثة أمتار، فلا يستطيع أحد أن يرى ما بداخله على بعد بضعة أمتار، مرّة أثناء عودتنا من الوغرة شاهدنا فتاة تخرج من حقل للقصب، وبعدها خرج شابّ، ومضى كل منهما في طريق، وكأنّ الواحد منهما لا يعرف الآخر، كان الأمر يدعو إلى الريبة، على الأقلّ بالنسبة إلينا، قصصنا ما شاهدناه على رجل وقور، كان يزورنا كثيراً ليشرب من مائنا (المُخَمَّد)، وقد امتدّت بيننا وبينه خيوط المودّة والارتياح، فقال لنا: لا علاقة لكم بذلك، لاتتدخّلوا إطلاقاً في مثل هذه الأمور، وبعدها صادفنا عدّة مواقف مماثلة، وبقينا صامتين.

الجن

كانت هذه البلاد وما تزال البيئة المثاليّة لنمو الخرافات والأساطير وانتشارها، إنها تقبع مختبئة في منحدرات جبال اليمن، منعزلة عن العالم، ساكنة سادرة في غفلتها، لا شأن لها بما يتغيّر حولها ويتجدّد، ففيها الجهل الأعمى، فالذين تعلموا القراءة والكتابة فقط لا غير عند شيخ المسجد منذ عهد قريب يعدّون على الأصابع.

وفيها التواكل أو الجبريّة، فكلّ فشل أو مصيبة في حياتهم يرجعونهما إلى إرادة السماء، ويجلسون عاجزين.

وفيها الفقر المُدقع، فهم يعتمدون في معاشهم على زراعة الذرة البيضاء، وتربية الحيوانات بشكل محدود من أغنام ومَعْز وأبقار وإبل، وإن بدأت ثمالة من حليب النفط تصل إلى هذه المناطق النائية، فتذوق بعض النعيم، كمساعدات الحكومة لبعض المنكوبين كما ذكرتُ، أو عمل بعض الشباب في الدوائر الحكوميّة في أنحاء المملكة.

وفيها السهول المترامية والوديان المجهولة والتلال الصخريّة والجبال المنتصبة، بما تحويه جميعها من وحوش وأوابد وأهوال.

فلا عجب من أنْ يُبدع عقل الإنسان البدائيّ أمام قوى الطبيعة المجهولة في هذه البيئة القاسية والمتخلّفة في كلّ شيء القصصَ الخرافيّة والحيواناتِ العجيبة، إضافة إلى أساطير الجنّ وأفعالهم وحكاياتهم التي لا تنتهي.

في موروث أبناء هذه البلاد الفكريّ الخرافيّ، أنّ النبي سليمان (ع)- كما ذكرتُ سابق- اكان يسجن في هذه البقاع الموحشة الجنّ المذنبين، ليذوقوا فيها أمرّ العذاب، إذ لم يجد في أنحاء المعمورة أقسى من هذه البلاد، وقد طاب المقام في هذه البقاع لبعض الجنّ المعاندين، فاستوطنوها، واتّخذوها مساكن لهم، ومن هنا جاءت في رأيهم تسمية بلادهم (جيزان) أو (جازان) ويرون أنها كلمة محرّفة أو منحوتة من عبارة (جزاء الجان)، وهم يعتقدون، بل يؤمنون بأن الجانّ يعيشون بين ظهرانيهم، يرونهم، ويسمعونهم، ويشاركونهم أحاديثهم، ويمازحونهم، وقد يأكلون من طعامهم، ويتزوّجون منهم أحياناً، فنسمع قصصاً وحكايات وخرافات، يعجز عن إبداعها خيال (هوميروس) وشطحات (فرجيل).

كنّا ذات سهرة عند زميلينا الفلسطينيّين في فسحة أمام خصّهم، الذي يقع غرب القرية، ووراءه تمتدّ السهول العجيبة الواسعة، وقد طمس الليل معالمها بحبره الأسود، فلا ترى إلّا الحلكة الداجية، ولا تسمع إلا الصمت الأخرس، يتناغم فيه بين الحين والآخر صوت جندب عاشق مع أزيز بعوضة شرهة، ونسماتُ الهواء تهبّ حيناً وتهدأ أحياناً، تنوّع حديث السهرة، إلى أنْ وصل إلى سِيَرِ الجنّ التي لا تنتهي.

قال المدرّس الفلسطينيّ حسن: وكان رجلاً متزمّتاً متمسّكاً بشدّة بتعاليم الدين، يؤمن أكثر من أبناء هذه البلاد بقصص الجنّ، ومشاركتهم لنا في كلّ أمر، قال: كنّا العام الماضي نسهر في مثل هذه الليلة المظلمة، فإذا بالفانوس- الذي يعمل على الكاز- قد انطفأ، ثم بعد دقائق اشتعل وأضاء من جديد، وبعد دقائق أخرى عاد الكرّة وانطفأ، ثم اشتعل، وهكذا مرّات عدّة، فمن الذي كان يقوم بهذا العمل غير الجن؟!، قلت له: يا أستاذ حسن، أنت إنسان مثقّف، للجنّ عالمهم الخاصّ بهم، وللإنس عالمهم الخاصّ بهم أيضاً، فما علاقتهم بنا ليطفئوا فانوسنا ويشعلوه؟!، أليس لهم عمل سوى التسلية وإخافتنا؟!، وأنا في ردّي على الأستاذ حسن وتفنيد مزاعمه انطفأ الفانوس، وكنّا قد ملأناه بالكاز منذ قليل، وما هي إلّا دقائق حتى عاد وتوهّج من جديد وأشتعل، وعلت ذُبالته، تنير المكان، ساورني الخوف، وأُرتج عليّ، وبعد دقائق انطفأ الفانوس هنيهة، ثم عاد واشتعل، قال الأستاذ حسن: تفضّل وتفاهم معهم (يقصد الجن)، ترددت قليلاً، ثمّ قمتُ إلى الفانوس، وأنا أحسّ بأن يداً تمسكني من قمّة رأسي، لكنّها المكابرة، فلم أشأ أن أظهر أمام الجميع جباناً أو مقراً بخطأ آرائي، مددتُ يدي لألمس الفانوس وأرى ما به، فانطفأ وساد الظلام الأعمى، جمدتُ مكاني، الأمر حقيقة، شعرت بخدر في دماغي، كنت أتوقع حينها أن تمتدّ يدُ ذلك الجنيّ من قلب الظلام- الجنيّ الذي أُنكر وجودَه بيننا، وقدرَته على فعل ما يريد- لتمسك برقبتي، وتهصرها، حتّى تزهق روحي، ثوانٍ من الحيرة والاضطراب والخوف، خطر لي أن أستعمل المصباح اليدوي (البيل) الذي لا يفارقني ليلاً، وجّهتُ نوره نحو الفانوس، فإذا بزجاجته الوسطى مقلوبة، الزجاجة لها

فتحتان، إحداهما ضيقة، تُوجّه للأعلى، والثانية عريضة تُوجّه للأسفل، وعندما قُلِبَت الزجاجة، كان الهواء يهبّ حيناً، ويدخل من الثقوب التي لم تسدّها بالكامل الفتحة الضيقة، فتنطفئ الشعلة، وتبقى الفتيلة كالجمر، ثم يهب الهواء المُنْتَزَع بالأكسجين، فتعود للتوهّج والإضاءة، لأنّ عناصر نظريّة الاشتعال متوفرة، الأكسجين والحرارة والمادة القابلة للاشتعال، قلبْتُ الزجاجة، ووضعْتُها بشكلها الصحيح، وعدْتُ إلى مكاني مزهّواً، وقلت للأستاذ حسن: أخبر جماعتك (أيْ الجن) أنني لا أخاف منهم.

حملة التوعية

جاءت إلى القرية حملة توعية دينية، مدّتها أسبوع، قال لنا منصور: علينا أن نَحضر جلساتها، فربّما احتاجوا إلى مساعدتنا للتوضيح أو الشرح، كانت الجلسات في المسجد من بعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء.

بدأت الجلسة الأولى بعرض شريط سينمائيّ عن تأسيس المملكة العربيّة السعوديّة، وتاريخ الملك عبد العزيز ونضاله الفريد، والحروب المقدّسة التي قام بها مع أنجاله البررة المباركين، لرسم حدود المملكة الحاليّ ، فوطّد الأمن في أرجائها، ونشر الرخاء، وأعلى كلمة الإسلام بعد أن خلصه من الشوائب والبدع. كان العرض في ساحة المدرسة وعلى حائطها، ليراه كلّ أبناء القرية.

ثم بدأ الدرس الأوّل في المسجد وموضوعه أحكام الطهارة، والماء الطاهر المُطَهِّر، والماء الطاهر غير المُطَهِّر، ثم انتقل إلى أحكام الوضوء، بعد ذلك وقف رئيس الحملة، رجل ضخم عظيم الوجه مُخضَّب اللحية واسع العينين المكحولتين، يلبس دشداشة قصيرة الذيل، تصل إلى بطّة الرِّجْل، هدر صوته يَلفت أذهان الجهلة الغافلين إلى ذلك الشيطان المريد الذي بدأ يتسلّل كالوسواس الخنّاس إلى بيوتهم، ويتبوّأ صدر مجالسهم، إنه التلفزيون اللعين، الصنم الرجيم، الذي يشرئبون إليه بعيونهم وقلوبهم ساعات طويلة، ناسين ذكر ربهم، ساهين عن عباداتهم، ثم احتقن وجهه، وتحوّل وعظه إلى ما يشبه السباب، وختم خطبته العصماء بدعوة السادرين في ضلالهم، المتهاوين في أدراك الجحيم، إلى تحطيم تلفزيوناتهم أصنامِ الشرك والمعصية، كما حطّم المسلمون الحقيقيّون الأوائل هُبَلَ واللّاتَ والعُزّى، أصنامَ الجاهليّة.

وقف يتلفّت كالمنتصر، وبعد أن هدأ قليلا راح يجيب عن أسئلة الحاضرين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، كالديك في لفتاته، والنطاسيّ في إجاباته، اقتربت منه، بدأت حديثي بالثناء على خطبته الفريدة المؤثّرة، وطلاقة لسانه وقوّة بيانه، وتَثْمينِ ما جاء في خطبته شكلاً ومضموناً، اطمأنّ إليّ، وشكرني على إطرائي، ثم سألته: من الذي يوجّه هذه الحملات الدينيّة المباركة؟، أجابني بحماسة وبنبرة قويّة واثقة: جلالة الملك المفدّى خالد بن عبد العزيز حفظه الله، قلت له: التي أنشأتْ محطّة التلفزيون وتقوم ببثّ هذه البرامج هي وزارة الإعلام السعوديّة، أليس ذلك؟، أجابني بشيء من الريبة: نعم، قلت: فلماذا لا يصدر جلالته أمراً بإيقاف البثّ التلفزيوني، وإلغاء هذه الوسيلة الإعلاميّة الفاسدة من أساسها، فيقطع لسان ذلك الشيطان الماكر، ويطفئ في عينيه جمر حقده، ويمنعه من إغواء الناس، ويريحكم من عناء سفركم ورحلاتكم الشاقّة؟. فاجأه سؤالي، فأطلّ من عينيه الاستنكار والغضب، ولم يُحِر جواباً، فقد أُسقط في يده.

في اليوم التالي قال لنا منصور: ليس من الضروري حضوركم جلسات التوعية الدينيّة، لأنّها لأبناء القرية فقط.

ذهبنا عصراً إلى مستوصف الخوبة، فزميلنا الفلسطينيّ يشكو من ألم في بطنه، طبعاً تحدّثنا مع الطبيب بالهندوإنكليزية، وبعد المعاينة وأخذ الدواء خرجنا للعودة، فوجئنا بجمع غفير من البشر قريباً من المستوصف، متّجهين إلى دار الإمارة، يقدّر عددهم بخمسمئة رجل، يمشون مشية خاصّة، ليست بالرقص ولا بالسير، شبيهة بمشية المحتجّين السود في إفريقيا، والغبار يتصاعد من الأرض الترابيّة، وينعقد غمامة بنيّة فوق رؤوسهم، يهزجون بأغانٍ وأناشيد، لم نفهم منها كلمة واحدة، مشهد غريب لم نر مثله في المملكة التي يسودها الأمان والوئام، أخبرونا أن جلالة الملك خالد خرج من المشفى بالسلامة، وأنّ طيّارته عائدة بحفظ الله إلى حضن الوطن، والناس يحتفلون بشفائه طبعاً على طريقتهم، فكل واحد يريد أن يتميّز عن الآخرين، ويبدي فرحاً خاصّاً بهذه المناسبة الغالية، ليراه المراقبون السريّون والمتتبّعون للمسيرة، فيكون ذكره عطراً عند أولي الشأن، فترى من يضرب الأرض برجليه، ويتمايل بجسده، ويطيّر يديه في الفضاء، والعرق يتصبّب من وجهه المُغْبَر المُحتقِن،ويسيل دروباً، وآخر ينفصل عن الجميع ويسير محاذياً للمسيرة، ويرقص رقصة مميّزة ليلفت انتباه كلّ من في المكان، وثالث يرفع عقيرته بالغناء الذي يشبه الحداء حتى يبحّ صوته، و لم يعد يُسمع، ورابع وخامس...

يا لها من فرحة كبيرة، لا تختلف عن فرحة أيّ عربيّ من شرقها إلى غربها، عندما يعلم أن زعيمه تجاوز محنة، أو نجا من مكيدة، أو عاد معافى من أحد المشافي الأمريكيّة.

****

كان الفجر يشقّ بصعوبة هذا الصباح أردية الليل عندما استيقظتُ على طعم الرمل في فمي، تقلّبت أغالب النوم، لكنّ الرمل ملأ أنفي أيضاً، نهضت، ضباب يغشّي ضوء الفانوس، إنّه (الطوز) عاصفة الرمل كما سمعنا عنها، وكما دعا لنا المحبّون بأنْ يبعده الله عنّا.

أغلقت بابيْ الغرفة ونافذتيها، لكن ما الفائدة، فهي جميعاً من ألواح الخشب فقط، وما بين كلّ لوحين فتحة عرضها أكثر من سنتمتر واحد، بلّلتُ الشملة الحريريّة البيضاء بالماء ووضعتها على أنفي وفمي، وجدت صعوبة في التنفّس، ولكن ما الحيلة؟!، نهض أبو عماد أيضاً يبصق، ويلعن حظّنا المشرق أبداً.

استيقظت شمس أيّار، ولم تغسل وجهها هذا الصباح، فلم نر قرص الشمس المختبئ وراء أمواج الرمل السابحة في الفضاء، لكنّ الشمس لا تعرف المهادنة، بدأت كعادتها تذوّب حميمها وتسكبه على الدنيا، أصبح الجوّ خانقاً مقيتاً، شعرت بالحرّ وضيق في الصدر، ماذا نفعل؟!، رحنا ندور داخل الغرفة، يصطدم أحدنا بالآخر، نجلس ثمّ نقف، هكذا إذاً يشعر السجناء والقرود داخل الأقفاص.

لم نستطع في تلك الأصبوحة السعيدة أن نفطر، اكتفى كلّ منّا برغيف وقطعة جبن (لافاش كيري)، كنت آكل لقمة، وأخبّئ الرغيف والجبن داخل الشملة.

جاءنا منصور رغم هذه العاصفة المقيتة وقال: اليوم تعطّل المدارس، فلا أحد يستطيع الحضور، وخصوصاً الطلّاب من القرى المجاورة، سألناه: كم يوماً تطول العاصفة عندكم عادة؟ قال: يومين أو ثلاثة على الأكثر، انتبهوا وخصوصاً في الليل، فإنّ بعض الحيوانات ينشط في مثل هذا الأجواء. "لا حول ولا قوّة إلّا بالله، حتّى الحيوانات تتألّب علينا في هذه البلاد..!"، ثمّ تابع: عليكما أن تذهبا إلى بيت صديقيكما، فهو من القصب، وله باب وحيد صغير، خرجنا مسرعين، فالبيت لا يبعد أكثر من مئة متر، وجدناهما قد قبعا داخله، وأسدلا على الباب شرشفاً، والغبار داخله أقلّ مما في غرفتنا، نمنا ليلتنا الأولى عند رفيقينا داخل الخصّ، لم تبق قصّة ولا حكاية إلّا وسردناها، وكما قالت سيّدة الغناء العربيّ: "وخلّصنا الكلام كلّه" كنّا لا نخرج من الخصّ إلّا للحاجة الضروريّة ونعود مسرعين.

في مساء اليوم الثاني كانت العاصفة قد بدأت تنحسر، فعدنا إلى غرفتنا، كانت بصمات أحذيتنا تظهر جليّة على الصخور التي نمشي عليها، أما الرمل داخل الغرفة فلم نتمكّن من التخلّص منه إلّا بغسله بالماء.

في مطعم إكسلانت

كنّا نسافر بين فترة وأخرى إلى جيزان، لإيداع الرواتب في بنك الراجحي، ونُبقي معنا ما نحتاجه، في إحدى المرّسات، وكان العام الدراسيّ قد قارب على الانتهاء، و الشمس قد عادت إلى سيرتها الأولى، دخلنا مطعم (إكسلانت) الوحيد الراقي في المدينة، ونحن نلبس القمصان المحلولة الأزرار من شدّة الحرّ، فبدت صدورنا عارية، وقد أطلق كلّ منّا شعره و لحيته، كانت لحيتي حمراء، ولحية زميلي أبو عماد شقراء، وهو يناهز المئة والتسعين سنتمترا طولاً، أشقر الشعر، أزرق العينين، أهيف القدّ، وكأنّه رجل ألمانيّ قادم للتو من ضفاف الراين، وكنت أقلّ منه طولاً، لكنّي أُقاربه في الشكل، فهرع النادلون في المطعم يرحّبون بنا، ويتحدّثون إلينا بالإنكليزيّة المكسّرة، فقد حفظوا منها بعض الجمل، ظنّوا أنّنا من غير العرب، الذين يكثرون في جيزان لإقامة المشاريع في الميناء وفي شقّ الطرق وتعبيدها، لأنّه ليس الآن وقت توافد المدرّسين على المدينة، سارعت وأجبتهم بالإنكليزيّة، أطلب أنواع الطعام، جاءتنا الأطباق العامرة، على غير ما ألفناه منهم، ووقف إلى جانبنا نادل ليقوم بخدمتنا وتلبية طلباتنا بأسرع ما يمكن، يبدو أن التعليمات جاءت من الإمارة بالاهتمام بالأصدقاء- طبعا غير العرب، فهم يسمّوننا نحن العرب أجانب، والأجانب حقيقة من غير العالم العربيّ أو الإسلامي يسمّونهم أصدقاء أو خواجات- كنّا نأكل ونتحدّث بالإنكليزيّة، جاءت قائمة المدفوعات أقلّ مما كنّا ندفع في المرّات السابقة، دفعنا وخرجنا مسرعين كي لا يرانا أحد زملائنا، ويخاطبنا بالعربية، ويُكشف أمرنا، فنعود نُعامل كأجانب لا كأصدقاء.

عندما تحدث أيّ مشكلة بين وافد منّا ومواطن سعوديّ، وعلى الأغلب تكون المشكلة حادث سيّارة، فالجميع- مَن حضر منهم الحادث أومن لم يحضر- يلقون السبب مباشرة على عاتق الوافد قبل التحقيق وقبل معرفة أيّ أمر عن ملابسات الحادث. في إحدى زياراتنا إلى جيزان لإيداع النقود في المصرف شاهدنا أبو عمّار، وكان قد اشترى سيارة مستعملة فخمة، يستعملها في قريته (أبو عريش)، كنا في نزهة معه على الشاطئ، فركن سيّارته على جانب الطريق، مرّ مواطن سعوديّ بسيّارته بسرعة كبيرة ولامس بها سيّارتنا، رجال المرور وكلّ مواطن يمرّ يسأل أولاً لمن كلّ سيارة، وعندما يعرف أننا وافدون فالسبب نحن دون جدال.

ما أثقل الأيّام على المغترب، إذا كان يَعدها بالساعات والدقائق متلهّفاً على يوم العودة، صبرنا كثيراً، ووطّنا أنفسنا على طبيعة هذه البلاد ووحوشها وأمراضها، واعتدنا على مناخها، فالإنسان كائن عجيب، يستطيع أن يتأقلم مع أقسى الظروف، ولا أدلّ على ذلك من أولئك الذين يقضون سنوات بل عقوداً في زنزانات منفردة ضيّقة تحت الأرض، ليس فيها إلّا الظلام والرطوبة والعفن وألوان التعذيب والتجويع، ثمّ يخرجون ليتابعوا حياتهم الطبيعية.

بدأ العد التنازليّ للرحيل، وبدأنا نحزم الحقائب، حدّثني منصور منفرداً، بعد أن علم قراري بأنّني لن أعود العام القادم، ولن أكرّر تجربة الغربة المرّة، قال لي: سنبني لك ولزوجتك بيتاً خاصّاً، ونؤمّن لك كلّ ما تحتاج، شكرته على أريحيّته وثقته الغالية، ووعدته خيراً، لكنّني كنت قد اتّخذت قراري، كان الوداع حاراً، حضر الجوار، قبّلنا الجميع، وانطلقت السيّارة إلى جيزان.

حان يوم العودة، اجتمع المدرّسون في جيزان من جديد، لا يوجد طائرات لتحملهم إلى جدّة، أشار أبو عمّار- وقد رأيناه بين المجتمعين- أن نسافر برّاً على حسابنا، فالطائرات قد تتأخّر يومين أو أكثر، ولا يوجد سيّارات للسفر إلى جدّة إلّا صباح اليوم التالي، وهنا كانت المشكلة، إذ كيف سننام على القعّادات في المقاهي المتناثرة في العراء، ومع كلّ منّا ما يقرب من عشرين ألف ريال، والمتشرّدون من القرن الإفريقي- كما ذكرت- منتشرون في الشوارع، ولا يتورّع أحدهم عن ارتكاب أيّ جريمة من أجل مئة ريال، فهل تراهم يعرفون أنّ كلّ منّا يحمل مبلغاً خياليّاً بالنسبة إليهم، حادثة الدبّاب وسرقة ثيابنا عند الشاطئ جعلتنا نتوجّس خيفة، أين نضع نقودنا في هذه الليلة الدهياء، ربّما هاجمونا، ونحن نيام بالسكاكين والخناجر، وهربوا، الحقائب مركوزة تحت القعّادات، وسرقتها أسهل ما يكون، رأينا أن نضع النقود في سراويلنا الداخلية، انتحينا زاوية مظلمة، رتّبنا أمورنا، وعدنا إلى المقهى متتابعين، كي لا نلفت انتباه أحد، فبدا كلّ منّا

وكأنّه مصاب بفتق عظيم في خصيتيه، يقبل الواحد مسرعاً، وقد أحنى ظهره قليلاً ليخفي ما استطاع من عاهته المؤقّتة، فكنّا نَتَنَدَّر على شكله المعقوف كالقريدس، وقد احتدّ المحاسب من أحد زملائنا، فأعطاه تصفية رواتبه قطعاً من فئة العشرين ريالاً، بينما أخذ بقية الصحاب رواتبهم من فئة المئة، فكانت مصيبة هذا الزميل عظيمة وفتقه أعظم.

ترى هل لاحظ أحد (فتوقنا)؟!، تكوّرتُ على القعّادة، ولم أتحرّك حتّى الصباح، لم تغفل عيناي، كنت أتقلّب وأنظر حولي حتّى تعبت أعصابي، وأطبقتْ أجفاني، فاستسلم دماغي مرغماً إلى أحلام، كان مسرحها غابة الخيزران قرب الخوبة وشوارع شيكاغو، إلى أن صاح النادل، يوقظنا لنغادر، فقد حان وقت توافد الزبائن على المقهى ، وأنا لم أصدّق أنّنا أصبحنا على خير.

إلى جدة

صباجاً سلكت السيّارة الطريق الساحليّ المحاذي للبحر الأحمر، كانت الحفريّات على أشدّها شمال جيزان، فالجرّافات تشقّ طرقات جديدة وسط الجبال، فصعدنا تلالاً من الأتربة، ونزلنا وديااناً وحفراً خطرة، وبعدها سرنا في طريق مستقيم، كانت المسافة إلى جدّة تقارب سبعمئة كيلومتر، كنّا نحاذي الشاطئ تارة، وتارة أخرى يشقّ الطريق أعماق جبال عسير، وقفنا عند استراحة تختبئ بين صخورٍ جبّارةٍ سامقةٍ تناطح قرن الشمس، عجباً كيف يعيش هؤلاء البشر في هذه الاستراحة المنفردة وسط قارّة من الجبال العارية بوحوشها ومخاطرها؟!، كيف بهم إذا عمّى الليلُ كلَّ مرئيّ، واستنبحت الأفاعي والضباعُ كالتي في (قُوّا) كلابَهم، وبينهم وبين أقرب قرية إليهم عشرات الكيلو مترات؟!، استأنفنا السير، أوقف السائق السيّارة، وقال لنا: انظروا إلى أعلى الجبل، شاهدنا أربعة أو خمسة أشخاص، يبدو الواحد منهم بحجم العصفور، تابع السائق حديثه: هناك من لا يحبّ أن يُخالط أحداً من البشر، فهذا الرجل يعيش مع زوجته وأولاده حياة بدائيّة منعزلاً في شعاب الجبل، سعيداً في وحدته، سألْنا السائق: كيف يؤمّن وسائل عيشه في قمة هذا الجبل الأجرد القاحل؟!، ردّ: يعيش على الصيد وما يجده من حشائش وأشواك وجذور بعض النباتات، عادت واستيقظت في ذاكرتي من جديد أبيات الحطيئة، التي تصف ذلك العربيّ المتوحّد في متاهات البادية والذي يشبه بدوينا هذا:

وطاوي ثلاثٍ عاصبِ البطنِ مُرْمِلٍ ببيداءَ لم يعرفْ بها ساكنٌ رَسْمـا

أخي جَفْوَةٍ ، فيه من الإنسِ وَحْشَـةٌ يرى البؤسَ فيها من شراستهِ نُعمى

وأَفْرَدَ في شِعْبٍ عَجوزاً إزاءَها ثلاثةُ أَشباحٍ تخالُهُمُ بَهْمـــا

حفاةً عراةً ما اغتَذَوْا خبزَ مَلَّةٍ ولا عَرفوا للبُرِّ مُذْ خُلِقوا طعما

لاشكّ أنّ هذه الأسرة بسلوكها تخالف ما جاء به علم الاجتماع، من أنّ الإنسان اجتماعي بالطبع، لا يستطيع أن يعيش إلّا وسط الجماعة، فهل هناك شذوذ لهذه القاعدة التي قرّرها هذا العلم الحديث.

لقد تأكّد لي الآن رأي بعض النقاد، أنّ من أسباب خُلُوِّ أدبنا القديم من المسرح فرديّة الإنسان العربيّ واعتزازَه بذاته، فالمسرح يحتاج إلى عمل جماعي وسط بيئة متحضّرة مستقرّة، يَقبل فيها الممّثل أن يقوم بأيّ دور، حتّى دور العبد المضطهَد الذي قد يُضرب ويهان، وهذا ما ترفضه أنفة العربيّ بأيّ شكل، حتّى ولو كان تمثيلاً، فلهذا السبب ولأسباب أخرى حُرم أدبنا القديم من هذا الفن الجميل.

تركنا ذلك العربيّ وحيداً مع أسرته يتسكّع فوق قلّة الجبل، وتابعنا سيرنا، قالوا: سنمرّ على مدينة قنفذة، إنّها مشهورة بعقاربها، ويروون للتّنَدُّر: أن العقرب فيها يثقب بحُمَتِه قِدْراً نحاسية، فعندما وصلنا إليها تعمّدت أن أبقى داخل السيّارة خوفاً من عقاربها، وعيناي ترصدان ما قد يدبّ حول السيّارة.

وصلنا مدينة جدّة عصراً، دخلنا صالة المطار القديم ذاته، كان المدرّسون كما عهدناهم في أوّل العام ينتثرون في أرجاء الصالة أفراداً وجماعات، لكنّ علامات الفرح كانت ترتسم هذه المرّة على وجوههم المتعبة، لست أدري كيف ابتسم لنا الحظ في اللحظات الأخيرة، فقد أخبرونا أنّ هناك طائرة إلى سوريا الساعة الثانية ليلاً، ربما كان هذا الخبر هو الفرحة الأولى لي في هذه الأرض الأعجوبة.

خرجنا لنتناول غداءنا الأخير في السعوديّة، أمام صالة المطار مطعم، يبيع الفرّوج المشويّ فقط، كان الجوع قد نال منّا، وكانت معركة شرسة مع الفرّوج بأصابع كلّ منّا العشرة، دون أن نلقي بالاً إلى نصائح المعريّ بتحريم أكل غريض الذبائح، قمت لأغسل يديّ من آثار المعركة الضروس، وضعت قليلاً من المنظف (التايد) على يديّ ودلكتهما ببعضهما بعضاً، مع قليل من الماء، ثم فتحت الحنفيّة لأزيل المنظّف والدهون عن يديّ، كانت درجة حرارة الماء تتجاوز المئة، الماء يغلي، والبخار يتصاعد منه، لقد وُضع خزّان الماء الحديديّ فوق السطح، يستقبل ألسنة اللهب منذ قبلات الشمس

الأولى، تلفّتُّ حولي، أفتش عن حلّ، يداي مطليّتان بالدهون الدبقة والتايد اللزج، أخذت منديلاً ورقياً، فالتصق بالدهون، ليس أمامي إلا زجاجة الماء المستورد المثلّج، اشتريت واحدة، كان زمهريرها أرحم من حميم الخزّان .

في قاعة الانتظار وقبل التفتيش رأيت بعض المدرّسين يتناوبون الوقوف على الميزان الأرضيّ، وقفت مثلهم لأعرف وزني، أشارت الإبرة إلى الرقم ستين كيلوغراماً، تأكّدت مرّة ثانية، لقد خسرت في هذه الرحلة السعيدة إلى السعوديّة عشرين كيلوغراماً فقط، ربع وزني، ترى أين ذهب ربعي؟!.. من سلّه من جسدي؟!..

عندما أقلعت بنا الطائرة إلى دمشق، أغمضت عينيّ، لأنّني لا أريد أن أفتحهما ثانية إلّا بين عرائس الغوطة، كان لساني يردّد بيتَ شعر نظمتُهُ مع غيره في لحظة ضيق وضجر:

طالَ اصْطباري والزمانُ مُعاندي وغدٌ سيأتي شاءَ أمْ كَرِهَ الزمانُ